مجلة شهرية

Issue No: 212 عدد:

April 2025 شهر نيسان

نـــــــور يسوع المسيح الـمسيـــــح

ΧΡΙΣΤΟΥ الفادي الطالب Φ Ω Σ

جمعية نور المسيح، رقم ٥٨٠٣٢٧٩١٤ ، ص.ب. ٦١٩ قانا الجليل ١٦٩٣٠

Nour Almasih / Light of Christ, Registered Society No. 580327914 - P.O.Box 619 , Cana of Galilee 16930, website:www.lightchrist.org

الفصح العظيم المقدّس

Ιερά Μονή Βατοπαιδίου Αγίου Όρους

دير الرُّوم العامر فاتوبيذي، جبل آثوس

المسيح قـام حـقًّا قـام

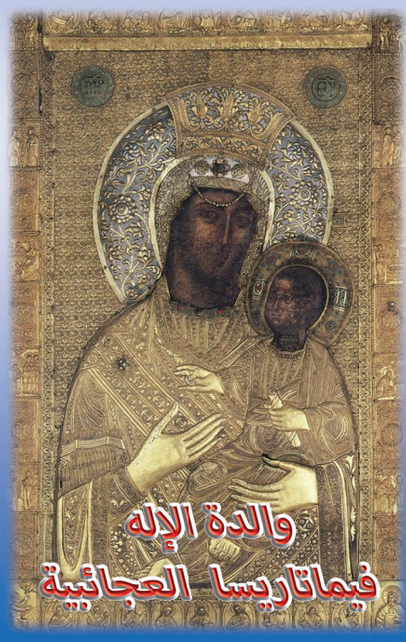

والدة الإله فيماتاريسا العجائبية

ثيوفيلوسُ الثالثُ: بِرَحْمَةِ اللهِ، بَطْرِيَرْكُ المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ أُورُشَلِيمَ وَسَائِرِ أَعْمَالِ فِلِسْطِينَ، إِلَى أَبْنَاءِ الكَنِيسَةِ أَجْمَعِينَ، نِعْمَةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلَامٌ لَكُمْ مِنَ القَبْرِ المُقَدَّسِ المَانِحِ الحَيَاةَ، قَبْرِ المَسِيحِ القَائِمِ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ.

اليَوْمُ يَوْمُ مَوْسِمٍ، إِذْ بِقِيَامَةِ المَسِيحِ، قَدِ اضْمَحَلَّ المَوْتُ وَلَاحَ فَجْرُ الحَيَاةِ، وَآدَمُ نَهَضَ مُرْتَكِضًا بِفَرَحٍ، لِذَلِكَ نُهَلِّلُ مُسَبِّحِينَ نَشَائِدَ الظَّفَرِ.
(من قانونِ أحدِ السجودِ للصليبِ الكريم)

اليَوْمَ تُعْلِنُ كَنِيسَةُ المَسِيحِ فِي العَالَمِ بِشَارَةَ الفَرَحِ، وَتُذِيعُ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ قِيَامَةَ مُؤَسِّسِهَا مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ، مُخَلِّصِنَا يَسُوعَ المَسِيحِ النَّاصِرِيِّ المَصْلُوبِ. إِنَّ يَسُوعَ المَسِيحَ، ابْنَ وَكَلِمَةَ اللهِ، الَّذِي مِنَ الرُّوحِ القُدُسِ وَمِنَ العَذْرَاءِ مَرْيَمَ تَأَنَّسَ وَوُلِدَ بِالجَسَدِ، وَشُوهِدَ عَلَى الأَرْضِ، وَاتَّخَذَ جِبْلَتَنَا البَشَرِيَّةَ فِي أُقْنُومٍ وَاحِدٍ، وَفِي طَبِيعَتَيْنِ: الطَّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ، فَقَدْ خَالَطَنَا نَحْنُ البَشَرَ، مُعَلِّمًا إِيَّانَا طُرُقَ التَّوْبَةِ، طُرُقَ حَيَاةِ السَّلَامِ وَالتَّضَامُنِ وَالمَحَبَّةِ حَتَّى لِلأَعْدَاءِ، فَشَفَى المَرْضَى، وَأَقَامَ المَوْتَى، وَأَحَبَّنَا نَحْنُ البَشَرَ إِلَى المُنْتَهَى، وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لِلمَوْتِ طَوْعًا مِنْ أَجْلِنَا، حَتَّى مَوْتِ الصَّلِيبِ المُهِينِ، سَافِكًا دَمَهُ الإِلَهِيَّ الطَّاهِرَ لِمَغْفِرَةِ خَطَايَانَا، مُقَدِّمًا نَفْسَهُ ذَبِيحَةً حَيَّةً، كَفَّارَةً مَرْضِيَّةً للهِ.

وَبَعْدَ أَنْ صُلِبَ عَلَى عَهْدِ بِيلاطُسَ البُنْطِيِّ، وَدُفِنَ، انْحَدَرَ إِلَى الَّذِينَ فِي الجَحِيمِ، أَيْضًا إِلَى الأَمْوَاتِ مُنْذُ الدُّهُورِ، المُعْتَقَلِينَ فِي قَبْضَةِ الشَّيْطَانِ. وَقَدْ شَمِلَهُمْ هُمْ أَيْضًا فِي عَمَلِهِ الفِدَائِيِّ الخَلَاصِيِّ، الَّذِي أَعْطَاهُ إِيَّاهُ الآبُ لِيُكَمِّلَهُ (يو١٧:٤). وَقَدْ سَبَقَ التَّدْبِيرُ الإِلَهِيُّ، فَهَيَّأَ **الأَحْيَاءَ** لِلتَّوْبَةِ بِيُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ السَّابِقِ، وَبَعْدَ مَوْتِهِ بَشَّرَ الأَرْوَاحَ فِي الجَحِيمِ بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ، الَّذِي نَزَلَ وَحَرَّرَ الأَبْرَارَ مِنْ سُلْطَانِ الْمَوْتِ وَالْهَاوِيَةِ. وَإِلَى هَؤُلَاءِ «الأَمْوَاتِ» كَرَزَ رَبُّنَا يَسُوعُ المَسِيحُ، الَّذِي انْحَدَرَ إِلَى الجَحِيمِ لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَبِإِيمَانِهِمْ بِهِ خَلَّصَهُمْ مِنَ الجَحِيمِ، وَحَرَّرَهُمْ مِنْ سُلْطَانِ الْمَوْتِ وَالْهَاوِيَةِ. وَتَنَازَلَ لَهُمْ، وَأَصْعَدَهُمْ، وَمَنَحَهُمُ الحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ، قَائِلًا: «ادْخُلُوا إِلَى الفِرْدَوْسِ مُجَدَّدًا»؛ وَعِنْدَ إِتْمَامِهِ هَذَا العَمَلَ، لَمْ يَكُنْ لِلْجَحِيمِ عَلَيْهِ أَيُّ سُلْطَانٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَضْبِطَهُ، فَلَقَدْ ظَنَّ الجَحِيمُ أَنَّهُ تَنَاوَلَ إِنْسَانًا، فَأَلْفَاهُ إِلَهًا. فَالرَّبُّ يَسُوعُ المَسِيحُ، يَعْمَلُ بِقُوَّةٍ إِلَهِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ الآبِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ، إِذْ هُوَ وَالآبُ وَاحِدٌ فِي الجَوْهَرِ وَالْمَجْدِ. «أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ» (يو١٤:١٠). فَقَدْ سَحَقَ الأَمْخَالَ الدَّهْرِيَّةَ، وَحَطَّمَ أَقْفَالَ المَوْتِ، وَبِسُلْطَانِهِ الذَّاتِيِّ قَامَ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ، وَأَقَامَ آدَمَ مَعَهُ بِيَدٍ قَدِيرَةٍ.

تَحْتَفِلُ الكَنِيسَةُ بِقِيَامَةِ المَسِيحِ مِنْ بَيْنِ الأَمْوَاتِ، أَيْ انْتِصَارِهِ عَلَى المَوْتِ، مُتَرَنِّمَةً بِفَرَحٍ: «إِذْ كَانَ القَبْرُ مُخْتُومًا، أَشْرَقْتَ مِنْهُ أَيُّهَا الحَيَاةُ، وَلَمَّا كَانَتِ الأَبْوَابُ مُغْلَقَةً، وَافَيْتَ التَّلَامِيذَ، أَيُّهَا المَسِيحُ الإِلَهُ، قِيَامَةَ الكُلِّ، وَجَدَّدْتَ لَنَا بِهِمْ رُوحًا مُسْتَقِيمًا، بِحَسَبِ عَظِيمِ رَحْمَتِكَ».

إِنَّ هَذَا الرُّوحَ، رُوحَهُ القُدُّوسَ، رُوحَ الحَقِّ، كَرَّسَهُ، أَوْ بِالأَحْرَى أَعْطَاهُ المَسِيحُ «بِالنَّفْخِ» لِتَلَامِيذِهِ فِي اليَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ القِيَامَةِ، قَائِلًا: «اقْبَلُوا الرُّوحَ القُدُسَ، مَنْ غَفَرْتُمْ خَطَايَاهُمْ تُغْفَرُ لَهُمْ» (يو٢٠: ٢٢).

وَمَنَحَ «الرُّوحَ القُدُسَ» أَيْضًا فِي جَمِيعِ ظُهُورَاتِهِ بَعْدَ القِيَامَةِ، «لِلَّذِينَ أَرَاهُمْ أَيْضًا نَفْسَهُ حَيًّا بِبَرَاهِينَ كَثِيرَةٍ، بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ، وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا» (أع١:٣). «وَارْتَفَعَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وَأَخَذَتْهُ سَحَابَةٌ عَنْ أَعْيُنِهِمْ» (أع١:٩).

وَصَعِدَ يَسُوعُ المَسِيحُ بِمَجْدٍ إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ الآبِ مُؤَهِّلًا الجِبْلَةَ، وَلَمْ يَتْرُكْ تَلَامِيذَهُ يَتَامَى (يو١٤:١٨)، وَلَكِنَّهُ أَرْسَلَ لَهُمْ مِنَ الآبِ مُعَزِّيًا آخَرَ كَمَا وَعَدَهُمْ، رُوحَ الحَقِّ (يو١٤:١٦). هَذَا أَرْسَلَهُ فِي يَوْمِ الْعَنْصَرَةِ، « فِي صَوْتٍ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ، وَفِي أَلْسِنَةٍ

مُنْقَسِمَةٍ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ، اسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ» (أع٢: ١-٣).

الَّذِي أَنَارَهُمْ وَقَوَّاهُمْ، وَجَعَلَهُمْ يُكَرِزُونَ بِحَمَاسَةٍ بِصَلْبِ الرَّبِّ وَقِيَامَتِهِ، «مُظْهِرًا الصَّيَّادِينَ غَزِيرِي الحِكْمَةِ، الَّذِينَ بِهِمِ اصْطَدْتَ المَسْكُونَةَ». فَبِكِرَازَتِهِمْ زَرَعَ الكَنِيسَةَ فِي كُلِّ الأَرْضِ حَتَّى أَقْصَاهَا، وَكَمَا وَعَدَهُمْ قَائِلًا: «بِأَنَّ أَبْوَابَ الجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا» (مَتَّى ١٦: ١٨).

لِهَذَا، فَإِنَّ الكَنِيسَةَ، الَّتِي هِيَ ظُهُورُ مَلَكُوتِهِ عَلَى الأَرْضِ، قَدْ أُوكِلَ إِلَيْهَا عَمَلُ البِشَارَةِ، وَبِالطَّبْعِ خِدْمَةُ المُصَالَحَةِ بِمَسَرَّةِ الآبِ؛ لأَنَّهُ كَمَا يَقُولُ رَسُولُ الأُمَمِ: «إِنَّ اللهَ كَانَ فِي المَسِيحِ مُصَالِحًا العَالَمَ لِنَفْسِهِ» (٢ كور ٥: ١٩)، «فَإِنَّهُ فِيهِ يَحِلُّ كُلُّ مِلْءِ اللَّاهُوتِ جَسَدِيًّا» (كو٢: ٩).

إِنَّ عَمَلَ المُصَالَحَةِ هَذَا تَقُومُ بِهِ الكَنِيسَةُ، الَّتِي هِيَ جَسَدُ المَسِيحِ، فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ العَالَمِ. وَإِنَّ **كَنِيسَةَ أُورُشَلِيمَ**، أُمَّ الكَنَائِسِ، هِيَ أَوَّلُ مَنْ اقْتَبَلَ مَغْفِرَةَ الخَطَايَا بِالقِيَامَةِ، وَتُتَمِّمُ هَذَا العَمَلَ فِي أَمَاكِنِ ظُهُورِهِ بِحَسَبِ الجَسَدِ عَلَى الأَرْضِ، وَتُبَشِّرُ بِالسَّلَامِ لِلبَعِيدِينَ وَالقَرِيبِينَ، وَبِالأَخَصِّ فِي هَذِهِ الأَوْقَاتِ العَصِيبَةِ، حَيْثُ تَشْتَعِلُ الحُرُوبُ فِي العَالَمِ، فَتُدَمِّرُ بِدُونِ رَحْمَةٍ، لَا سِيَّمَا المُمْتَلَكَاتِ وَالمَسَاكِنَ، بَلْ تَحْصُدُ أَيْضًا حَيَاةَ الإِنْسَانِ. وَمِنْ هَذِهِ الأَمَاكِنِ، وَخُصُوصًا مِنَ القَبْرِ المُقَدَّسِ، القَابِلُ الحَيَاةَ، الَّذِي أَشْرَقَ مِنْهُ نُورُ القِيَامَةِ، وَفِي دَاخِلِهِ يُقَامُ القُدَّاسُ الإِلَهِيُّ الفِصْحِيُّ، تُوَجِّهُ الكَنِيسَةُ صَلَوَاتِهَا إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ وَقْفِ جَمِيعِ الأَعْمَالِ العِدَائِيَّةِ وَالحُرُوبِ، وَخُصُوصًا فِي غَزَّةَ وَجَمِيعِ بِقَاعِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ وَالشَّرْقِ الأَوْسَطِ، مُتَضَرِّعَةً إِلَى اللهِ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ وَحْدَةِ الكَنَائِسِ الأُرْثُوذُكْسِيَّةِ فِي رِبَاطِ السَّلَامِ، لِكَيْ تَشْهَدَ لِوَحْدَتِهَا، إِذْ يَنْتَظِرُ العَالَمُ المُتَأَلِّمُ بِشِدَّةٍ شَهَادَةَ هَذِهِ الوَحْدَةِ بِفَارِغِ الصَّبْرِ.

وَخَاصَّةً، وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، تَتَوَسَّلُ الكَنِيسَةُ إِلَى رَعِيَّتِهَا فِي أَمَاكِنِ اخْتِصَاصِهَا القَانُونِيِّ فِي المَمْلَكَةِ الأُرْدُنِيَّةِ الهَاشِمِيَّةِ، وَدَوْلَةِ فِلَسْطِين، وَدَوْلَةِ قَطَرَ، وَدَوْلَةِ إِسْرَائِيلَ، وَفِي كُلِّ الأَرْضِ، وَإِلَى الزُّوَّارِ المُؤْمِنِينَ الأَتْقِيَاء، مُعَايِدَةً إِيَّاكُمْ بِالتَّحِيَّةِ الفِصْحِيَّةِ: «**المَسِيحُ قَامَ**»، وَبِقَوْلِ المُخَلِّصِ المُنْتَصِرِ: «تَشَجَّعُوا، فَأَنَا قَدْ غَلَبْتُ العَالَمَ» (يو١٦: ٣٣).

المسيح قام حقًّا قـــام

فِي مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ المُقَدَّسَةِ، فِي فِصْحِ ٢٠٢٤

مَعَ أَدْعِيَتِنَا وَبَرَكَاتِنَا الأُبَوِيَّةِ

البطريرك ثيوفيلوس الثالث

بطريرك المدينة المقدسة أورشليم

اِبْتِهَالٌ وَشَفَاعَةٌ إِلَى ٱلْعَذْرَاءِ وَالِدَةِ ٱلْإِلَهِ

يَا وَالِدَةَ ٱلْإِلٰهِ ٱلْقِدِّيسَةَ، يَا رَجَاءَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَلْجَأَ ٱلتَّائِبِينَ، نَلْتَجِئُ إِلَيْكِ ٱلْيَوْمَ بِكُلِّ خُشُوعٍ وَٱنْسِحَاقٍ، نَطْلُبُ شَفَاعَتَكِ أَمَامَ ٱبْنِكِ ٱلْإِلٰهِ ٱلْمُتَجَسِّدِ، ٱلَّذِي تَجَسَّدَ وَصَارَ إِنْسَانًا لِأَجْلِ خَلَاصِنَا.

يَا مَنْ حَمَلْتِ ٱلنُّورَ ٱلَّذِي أَشْرَقَ عَلَى ٱلْعَالَمِ، ٱشْفَعِي فِينَا أَمَامَ عَرْشِ ٱلرَّحْمَةِ، وَٱطْرُقِي أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ لِأَجْلِنَا، نَحْنُ ٱلْخُطَاةَ ٱلْغَارِقِينَ فِي بَحْرِ ٱلتَّجَارِبِ وَٱلْآلَامِ. كُونِي لَنَا أُمًّا حَنُونَةً، تَشْفَعِينَ فِينَا لَدَى مُخَلِّصِنَا، فَيَهْدَأَ ٱضْطِرَابُ نُفُوسِنَا، وَتُرْفَعَ عَنَّا ٱلشَّدَائِدُ، وَنَنَالَ غُفْرَانَ ٱلْخَطَايَا وَسَلَامَ ٱلْقَلْبِ.

يَا مُمْتَلِئَةً نِعْمَةً، يَا مَنْ دَعَاكِ جِبْرَائِيلُ: «مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي ٱلنِّسَاءِ»، ٱسْكُبِي عَلَيْنَا بَرَكَاتِكِ ٱلسَّمَاوِيَّةَ، وَٱشْمُلِي ضَعْفَنَا بِرَحْمَتِكِ، فَأَنْتِ ٱلْمُعِينَةُ فِي ٱلضِّيقَاتِ، وَٱلْمُعَزِّيَةُ فِي ٱلْأَحْزَانِ، وَٱلْمُرْشِدَةُ إِلَى طَرِيقِ ٱلْخَلَاصِ.

أَيَّتُهَا ٱلْعَذْرَاءُ ٱلطَّاهِرَةُ، حَنِّي بِعَيْنَيْكِ ٱلرَّؤُوفَتَيْنِ عَلَى كُلِّ ٱلْمُتَأَلِّمِينَ، وَٱفْرِغِي عَلَيْنَا سَلَامًا مِنْ لَدُنْكِ، وَٱحْفَظِينَا تَحْتَ سِتْرِ حَنَانِكِ، حَتَّى نَعْبُرَ هَذَا ٱلْعَالَمَ بِسَلَامٍ، وَنَبْلُغَ إِلَى ٱلْمِينَاءِ ٱلْأَبَدِيِّ، حَيْثُ نَفْرَحُ مَعَكِ بِمَجْدِ ٱبْنِكِ، رَبِّنَا وَإِلٰهِنَا، لَهُ ٱلْمَجْدُ إِلَى ٱلْأَبَدِ، آمِينَ.

العظة الثانية

لماذا دعا اللهُ إلى الوجودِ: الشمسَ والقمرَ والسماءَ وسائر الموجودات قائلًا: «ليكن»، بينما قال عن الإنسان: «لنعمل»؟ وما معنى عبارة: «عَلَى حَسَبِ الصُّورَةِ»؟

مُؤَازَرَةُ صَلَوَاتِ الإِكْلِيرُوسِ وَالشَّعْبِ لِلْقِدِّيسِ يُوحَنَّا الذَّهَبِيِّ الفَمِ فِي وَعْظِهِ.

١ – هَلْ تَتَذَكَّرُونَ الأُمُورَ الَّتِي حَدَّثْتُكُمْ عَنْهَا سَابِقًا؟ لِأَنَّكُمْ قَدْ دَفَعْتُمُونِي إِلَى دَرَجَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الجُرْأَةِ وَالتَّجَاسُرِ حَتَّى أَشْرَعَ فِي بَحْثِ مَوْضُوعَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ. غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَا أَحْسُبُهُ مَثَلًا لِلْجُرْأَةِ وَلَا لِلْجَسَارَةِ، إِذْ إِنَّنِي لَمْ أَنَلِ الشَّجَاعَةَ مِنْ قُوَّتِي الخَاصَّةِ، بَلْ أَخَذْتُ عَلَى عَاتِقِي الدُّخُولَ إِلَى حَلْبَةِ المُصَارَعَةِ مُسْتَنِدًا إِلَى صَلَوَاتِ الإِكْلِيرُوسِ(١) وَصَلَوَاتِكُمُ الخَاصَّةِ. كَمْ هِيَ عَظِيمَةٌ طَلَبَةُ الْكَنِيسَةِ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ صَمْتًا مِنَ الْحِجَارَةِ! فَالصَّلَاةُ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَ أَلْسِنَتَنَا أَخَفَّ مِنْ جَنَاحِ الطَّيْرِ، إِذْ يُشْبِهُ ذَلِكَ تَمَامًا الرِّيحَ الْغَرْبِيَّةَ الَّتِي تَهُبُّ فَتَدْفَعُ شِرَاعَ السَّفِينَةِ، فَتُحَرِّكُ الْمَرْكَبَ أَسْرَعَ مِنَ السِّهَامِ، هَكَذَا أَيْضًا صَلَاةُ الْكَنِيسَةِ عِنْدَمَا تَنْسَكِبُ عَلَى لِسَانِ ذَاكَ الَّذِي يَتَحَدَّثُ، فَتُحَرِّكُ الْكَلِمَةَ فِي فَمِهِ أَسْرَعَ مِنْ هَذِهِ الرِّيَاحِ. لِذَلِكَ، أَنَا يَوْمِيًّا أَبْدَأُ الْمُنَافَسَةَ بِنِشَاطٍ كَبِيرٍ، لِأَنَّهُ فِي الْمُنَافَسَاتِ الَّتِي تُقَامُ خَارِجَ الْكَنِيسَةِ، إِذَا كَانَ هُنَاكَ أَحَدُ الْمُتَنَافِسِينَ لَدَيْهِ عَشَرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ مُشَجِّعًا مُتَحَمِّسًا بَيْنَ جَمْعٍ كَبِيرٍ، فَإِنَّهُ يَأْتِي إِلَى الْمُبَارَاةِ بِتَأَهُّبٍ شَدِيدٍ، وَأَنَا سَأَفْعَلُ هَذَا بِأَكْبَرِ الْاِسْتِعْدَادِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَدَيَّ فَقَطْ عَشَرَةٌ أَوْ عِشْرُونَ، بَلْ كُلُّ الْحُضُورِ الَّذِينَ يَتَكَوَّنُونَ مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْآبَاءِ. وَإِنَّهُ، بِكُلِّ تَأْكِيدٍ، فِي الْمُبَارَاتِ الَّتِي تُقَامُ خَارِجَ الْكَنِيسَةِ، لَا يَسْتَطِيعُ الْمُصَارِعُ أَنْ يَجْنِيَ شَيْئًا مِنَ الْمُشَاهِدِ سِوَى جُلُوسِهِ عَلَى الْمَنَصَّةِ لِيُصَفِّقَ لَهُ، وَيُبْدِيَ إِعْجَابَهُ بِمَا يَجْرِي هُنَاكَ، أَوْ يَتَشَاجَرُ مَعَ الْآخَرِينَ الَّذِينَ يُشَجِّعُونَ الْخَصْمَ، لَكِنْ لَا يُسْمَحُ لِلْمُشَجِّعِينَ بِالنُّزُولِ إِلَى حَلْبَةِ الْمُصَارَعَةِ وَتَقْدِيمِ الْعَوْنِ لِلْمُتَنَافِسِ، مِثْلَ سَحْبِ رِجْلِ الْخَصْمِ (قَدَمِ الْخَصْمِ) أَوْ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، لِأَنَّ الَّذِينَ يُدِيرُونَ تِلْكَ الْمُبَارَاتِ مُنْذُ الْبِدَايَةِ يَمْنَعُونَ الْمُشَاهِدِينَ مِنْ فَعْلِ أَيِّ أَمْرٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، إِذْ يَصْنَعُونَ أَوْتَادًا مُسَنَّنَةً وَيُحِيطُونَ حَلْبَةَ الْمُصَارَعَةِ بِحِبَالٍ. فَمَا الْغَرَابَةُ فِي أَنَّهُ غَيْرُ مَسْمُوحٍ لِلْمُشَاهِدِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْحَلْبَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ عَلَى الْمُدَرِّبِ نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ خَارِجَ الْمَلْعَبِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَلْبَةِ، وَأَنْ يُسْمَحَ لَهُ فَقَطْ بِتَقْدِيمِ إِرْشَادَاتِهِ التَّعْلِيمِيَّةِ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَا يُجَازُ لَهُ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنَ الْحَلْبَةِ؟

غَيْرَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ هَكَذَا فِيمَا يَخُصُّ مَوْضُوعَنَا، لِأَنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنِ لِلْمُعَلِّمِ وَالْمُشَاهِدِ(٢) أَنْ يَقْتَرِبَا مِنَّا وَيَقِفَا بِجِوَارِنَا لِمُؤَازَرَتِنَا، حَتَّى يُشَدِّدَا مِنْ عَزِيمَتِنَا بِصَلَوَاتِهِمَا، فَلْنَبْدَأْ إِذًا مُبَارَاتَنَا عَلَى نَهْجِ أُولَئِكَ الْمُصَارِعِينَ الرِّيَاضِيِّينَ، حَيْثُ يَأْخُذُونَهُمْ مَوْثُوقِينَ مِنْ أَيْدِيهِمْ مِنَ الْوَسَطِ، ثُمَّ يُدْفَعُونَ (أَوْ يُقْذَفُونَ) لِأَسْفَلِ بِسَبَبِ قُوَّةِ الْمُمْسِكِينَ بِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَضِيقِ الْمَكَانِ بِسَبَبِ الْجَمْعِ الْحَاضِرِ، وَبَعْدَ أَنْ يُفْلِتَ مِنَ الْقَبْضَةِ، يُعَاوِدُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى مَكَانِ الْمُصَارَعَةِ. وَلَكِنْ مُتَّخِذًا نَفْسَ الْمَوْقِفِ السَّابِقِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ عِنْدَمَا كَانَ مُقَيَّدًا مِنْ خَصْمِهِ. وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لَنَا، فَقَدِ اضْطَرَّنَا ضِيقُ الْمَكَانِ إِلَى إِيقَافِ الْحَدِيثِ، فَدَعُونَا نَتَقَدَّمْ وَنَعُودْ إِلَى مَكَانِ مُصَارَعَتِنَا لِكَيْ نُفَسِّرَ غُمُوضَ(٣) مَا قَدْ قُرِئَ عَلَيْنَا الْيَوْمَ.

سَبَبُ قَوْلِهِ: «لِنَعْمَلْ» بَدَلًا مِنْ: «لِيَكُنْ»:

إِذْ يَقُولُ: «وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا» (تك ١:٢٦). فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَجِبُ أَنْ نَفْحَصَهُ هُوَ الْآتِي: لِمَاذَا عِنْدَ خَلْقِ اللهِ السَّمَاءِ لَمْ يَقُلْ نِهَائِيًّا فِي أَيِّ مَكَانٍ «لِنَعْمَلْ» بَلْ قَالَ: «لِتَكُنْ سَمَاءٌ» «لِيَكُنْ نُورٌ»، وَبِنَفْسِ التَّعْبِيرِ دَعَا كُلَّ أَجْزَاءِ الْخَلِيقَةِ لِلْوُجُودِ، وَبَيْنَمَا هُنَا فَقَطْ قَالَ: «لِنَعْمَلْ» كَأَنَّهُ يُعَبِّرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَفِكْرٍ وَإِعْلَانٍ إِلَى شَخْصٍ آخَرَ لَهُ نَفْسُ الْكَرَامَةِ؟ **فَمَنْ يَا تُرَى ذَاكَ الْمُزْمِعَ أَنْ يُخْلَقَ وَلَهُ مِقْدَارُ هَذِهِ الْكَرَامَةِ الْعَظِيمَةِ؟** إِنَّهُ الإِنسانُ الكائنُ الجسيمُ، والجديرُ بالإعجابِ،

والذي يَعتبِرُهُ اللهُ الأكثرَ كرامةً مِن كُلِّ مخلوقاتِ البريَّةِ، الذي لأجلِهِ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ والبَحرَ وكُلَّ مخلوقاتِ الكونِ بوجهٍ عامٍّ. هُوَ الإنسانُ الذي أَظهَرَ لهُ اللهُ مَحبَّةً عظيمةً، إلى دَرَجَةٍ أنَّهُ لم يَبخَلْ بابنِهِ الوحيدِ مِن أجلِ خلاصِهِ، لا بل لم يَتَوَقَّفْ عن فِعلِ كُلِّ شيءٍ، حتَّى إنَّهُ اعتنى بِهِ ورَفَعَهُ وأَجلسَهُ عن يَمينِهِ، إذْ يَصرُخُ بولُسُ قائِلًا: «وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (أفس٢: ٦). لِذَلِكَ، عِبارَةُ «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ» تُعَبِّرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَفِكْرٍ وَإِعْلَانٍ، لَيْسَ لِأَنَّ اللهَ فِي احْتِيَاجٍ لِلإِرَادَةِ أَوِ الفِكْرِ، فَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ، وَلَكِنْ بِاسْتِخْدَامِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ يُقَدِّمُ لَنَا الكَرَامَةَ الَّتِي أُعْطِيَتْ لِهَذَا الإِنْسَانِ الَّذِي خُلِقَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ لِلْأَكْثَرِ كَرَامَةً مِنْ كُلِّ العَالَمِ أَنْ يُخْلَقَ بَعْدَ خَلْقِ كُلِّ هَذَا العَالَمِ؟ فَذَلِكَ لِأَنَّهُ الأَكْثَرُ كَرَامَةً مِنَ العَالَمِ، لِأَنَّهُ تَمَامًا مِثْلَ مَلِكٍ عِنْدَمَا يَعْتَزِمُ أَنْ يَدْخُلَ مَدِينَةً، فَإِنَّهُ يَسْبِقُهُ إِلَيْهَا رُؤَسَاءُ الجَيْشِ وَالقَادَةُ وَالحُرَّاسُ وَكُلُّ العَبِيدِ حَتَّى يُجَهِّزُوا مَسْكِنَ المَلِكِ، وَعِنْدَمَا يُهَيِّئُونَ كُلَّ الأُمُورِ الأُخْرَى المُتَعَلِّقَةِ بِاسْتِقْبَالِهِ وَالِاعْتِنَاءِ بِهِ، يَسْتَقْبِلُونَ المَلِكَ بِكَرَامَةٍ عَظِيمَةٍ. هَكَذَا أَيْضًا هُنَا كَمَا لَوْ كَانَ الأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِقُدُومِ مَلِكٍ، سَبَقَتْهُ الشَّمْسُ وَجَرَتْ قُدَّامَهُ السَّمَاءُ وَخُلِقَ النُّورُ، وَكُلُّ شَيْءٍ بِشَكْلٍ عَامٍّ صَارَ وَأُعِدَّ، ثُمَّ حِينَئِذٍ دَخَلَ الإِنْسَانُ إِلَى العَالَمِ بِكَرَامَةٍ عَظِيمَةٍ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا» (تك١: ٢٦) فَلْيَسْمَعْ اليَهُودُ.

لِمَنِ يَتَحَدَّثُ اللهُ؟ فَهَذَا الْمَكْتُوبُ هُوَ لِمُوسَى، مُوسَى الَّذِي يَقُولُونَ إِنَّهُمْ يُصَدِّقُونَهُ، وَلَكِنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يُصَدِّقُونَهُ. (فَالْمَسِيحُ) يَقُولُ: (٤) «لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي» (يو٥: ٤٦)؛ وَأَيْضًا الآنَ لِأُولَئِكَ تُوجَدُ الْكُتُبُ وَلَكِنْ بِالنِّسْبَةِ لَنَا يُوجَدُ الْكَنْزُ، لِأُولَئِكَ تُوجَدُ الْكُتُبُ، أَمَّا نَحْنُ فَالنُّصُوصُ وَالْمَفَاهِيمُ.

لِمَنْ كَانَ يُوَجِّهُ حَدِيثَهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ»؟:

أَخْبِرْنِي إِذًا: لِمَنْ يَقُولُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ»؟ يُقال إِنَّهُ بِسَاطَةٍ يَتَحَدَّثُ لِمَلَاكٍ أَوْ لِرَئِيسِ مَلَائِكَةٍ (٥)؛ لِأَنَّهُمْ (اليَهُودُ) مِثْلَ الْعَبِيدِ الَّذِينَ يَسْتَوْجِبُونَ الْمُسَاءَلَةَ مِنْ قِبَلِ أَسْيَادِهِمْ وَالْمُسْتَحِقِّينَ لِلسُّوطِ (الكَرْبَاجِ)، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا مُبَاشَرَةً، بَلْ يَقُولُونَ فَقَطْ مَا يُصَادِفُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا تَقُولُونَ إِنَّهُ كَانَ يُخَاطِبُ مَلَاكًا أَوْ رَئِيسَ مَلَائِكَةٍ. فَأَيُّ مَلَاكٍ أَوْ أَيُّ رَئِيسٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَيْسَ مِنْ عَمَلِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَا مِنْ عَمَلِ رُؤَسَاءِ الْمَلَائِكَةِ. فَلِمَاذَا إِذًا، عِنْدَمَا خَلَقَ السَّمَاءَ، لَمْ يَتَحَدَّثْ إِلَى مَلَاكٍ أَوْ رَئِيسٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟ بَلْ خَلَقَهَا بِمُفْرَدِهِ. وَعِنْدَمَا خَلَقَ الْكَائِنَ الأَسْمَى مِنَ السَّمَاءِ، وَأَسْمَى مِنْ أَيِّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ، وَهُوَ الإِنْسَانُ، أَفَيَتَّخِذُ اللهُ إِذًا شَرِيكًا لَهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعُلْوِيَّةِ فِي عَمَلِهِ؟

٢– لَيْسَ هَذَا صَحِيحًا عَلَى الإِطْلَاقِ، لِأَنَّ عَمَلَ الْمَلَائِكَةِ هُوَ أَنْ يَكُونُوا بِالْقُرْبِ مِنَ اللهِ، لَا أَنْ يَخْلُقُوا، وَعَمَلُ رُؤَسَاءِ الْمَلَائِكَةِ هُوَ أَنْ يَخْدِمُوا اللهَ، لَا أَنْ يُشَارِكُوهُ فِي فِكْرِهِ وَقَرَارِهِ. هَلْ سَمِعْتَ مَا قَالَهُ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ عَنِ السَّرَافِيمِ الْقُوَّاتِ الَّذِينَ هُمُ الأَسْمَى مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَلَائِكَةِ؟ « رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ، وَأَذْيَالُهُ تَمْلَأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ، لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ، بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ» (أشعياء ٦: ٢،١). أَيْ أَنَّهُمْ يُغَطُّونَ أَعْيُنَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُمْعِنُوا النَّظَرَ فِي عَظَمَةِ وَهَوْلِ النُّورِ غَيْرِ الْمَخْلُوقِ الْمُرْسَلِ مِنَ الْعَرْشِ (الإلهي). فَمَاذَا تَقُولُ؟ هَلْ يَقِفُ السَّرَافِيمُ بِجَوَارِهِ مُتَوَارِينَ مِنَ الإِعْجَابِ وَالدَّهْشَةِ وَهُمْ يَقْشَعِرُّونَ مِنْ عَظَمَةِ التَّنَازُلِ الإلهي، فِي حِينِ يَشْتَرِكُ الْمَلَائِكَةُ فِي إِرَادَتِهِ وَفِكْرِهِ؟ **غَالِبًا، لَا يُمْكِنُ تَبْرِيرُ هَذَا الْأَمْرِ.**

وَلَكِنْ مَنْ ذَاكَ الَّذِي يُحَدِّثُهُ قَائِلًا: «لِنَعْمَلَ الإِنْسَانَ»؟ **إِنَّهُ المُشِيرُ العَجِيبُ، صَاحِبُ السُّلْطَانِ، اللهُ القَوِيُّ، رَئِيسُ السَّلَامِ وَأَبُو الدَّهْرِ الآتِي**(٦)، وَهُوَ **ابْنُ اللهِ الوَحِيدِ**. له يقول: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا» (تك ١: ٢٦)، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ طِبْقًا لِصُورَتِي وَلِصُورَتِكَ أَوْ حَتَّى عَلَى صُورَتِي وَصُورَتِكُمْ بَلْ: «عَلَى صُورَتِنَا» مُظْهِرًا صُورَةً وَاحِدَةً وَشَبَهًا وَاحِدًا، فِي حِينِ أَنَّ اللهَ وَالْمَلَائِكَةَ لَيْسَ لَهُمْ صُورَةٌ وَاحِدَةٌ وَلَا وَاحِدٌ هُوَ الشَّبَهُ بَيْنَهُمْ، لِأَنَّهُ كَيْفَ تَكُونُ الصُّورَةُ وَالشَّبَهُ وَاحِدًا بَيْنَ الرَّبِّ وَعَبِيدِهِ؟ وَحَتَّى يَكُونَ الْحَدِيثُ مَقْبُولًا مِنْ كُلِّ النَّوَاحِي، لِأَنَّ الْكَلَامَ هُنَا يُشِيرُ إِلَى صُورَةِ السُّلْطَةِ، وَهَكَذَا يُعْلِنُ الْكَلَامُ تِبَاعًا، لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: «عَلَى الصُّورَةِ وَالشِّبْهِ»، يُضِيفُ: «فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ» (تك١: ٢٦). غَيْرَ أَنَّ سُلْطَانَ اللهِ وَسُلْطَانَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا، لِأَنَّ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ السُّلْطَةُ وَاحِدَةً لِلْعَبِيدِ وَالسَّيِّدِ، لِلْخَدَمِ وَلِمَنْ يَأْمُرُ؟.

الإِنْسَانُ مَخْلُوقٌ عَلَى صُورَةِ اللهِ فِي السِّيَادَةِ وَلَيْسَ فِي الْجَوْهَرِ:

غَيْرَ أَنَّ الْبَعْضَ يَطَّلِعُونَ عَلَيْنَا قَائِلِينَ: إِنَّ اللهَ لَهُ نَفْسُ تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي لَنَا، مُسِيئِينَ فَهْمَ مَا قِيلَ. لِأَنَّهُ لَمْ يَتَحَدَّثْ عَنْ صُورَةِ الْجَوْهَرِ، بَلْ عَنْ صُورَةِ السِّيَادَةِ وَالسُّلْطَةِ، كَمَا سَوْفَ نُوضِّحُ مِنْ كُلِّ مَا يُقَالُ تِبَاعًا. لِأَنَّ اللَّاهُوتَ لَيْسَ لَهُ شَكْلٌ بَشَرِيٌّ، فَاسْمَعْ **بُولُسَ** الَّذِي يَقُولُ: «فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ **صُورَةَ** اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ. لأَنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ مِنَ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ. وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ. لِهذَا يَنْبَغِي لِلْمَرْأَةِ أَنْ يَكُونَ لَهَا سُلْطَانٌ عَلَى رَأْسِهَا» (١ كور١١: ٧-١٠). هَكَذَا فَإِنَّهُ يَدْعُوهُ هُنَا **صُورَةً** لِيُظْهِرَ تَمَاثُلَ **صُورَةِ** الإِنسَانِ نَحْوَ اللهِ، لِذَلِكَ تَمَامًا يُدْعَى الإِنسَانُ بِإِنسَانِ اللهِ، لِأَنَّ اللهَ قَدْ شَكَّلَهُ هَكَذَا. وَبِالتَّالِي، طِبْقًا لِفِكْرِ أُولَئِكَ، لَا يَنْبَغِي إِذًا أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ فَقَطُ بِصُورَةِ اللهِ بَلْ وَالْمَرْأَةُ أَيْضًا، لِأَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ لَهُمَا نَفْسُ الْهَيْئَةِ وَالصِّفَاتِ وَالشَّبَهِ الْوَاحِدِ.

فَلِأَيِّ سَبَبٍ إِذًا دُعِيَ الرَّجُلُ (أَنَّهُ مَخْلُوقٌ عَلَى) صُورَةِ اللهِ وَلَيْسَ الْمَرْأَةُ؟ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَعْنِي بِالصُّورَةِ الْهَيْئَةَ بَلِ الصُّورَةَ فِيمَا يَخُصُّ السِّيَادَةَ الَّتِي يَمْلِكُهَا الرَّجُلُ فَقَطْ وَلَيْسَ الْمَرْأَةَ. فَالرَّجُلُ لَيْسَ خَاضِعًا لِأَحَدٍ، أَمَّا هِيَ فَقَدْ وُضِعَتْ تَحْتَ سُلْطَانِهِ. «وَإِلَى رَجُلِكِ يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ» (تكوين ٣: ١٦). لِذَلِكَ فَالرَّجُلُ هُوَ عَلَى صُورَةِ اللهِ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ، مِثْلَ اللهِ الَّذِي لَا يُوجَدُ مَنْ هُوَ أَعْلَى مِنْهُ،

بَلْ هُوَ سَيِّدُ ٱلْكُلِّ، أَمَّا ٱلْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ ٱلرَّجُلِ لِأَنَّهَا خَاضِعَةٌ لَهُ.

اللهُ لَيْسَ لَهُ صُورَةٌ مَادِّيَّةٌ أَوْ بَشَرِيَّةٌ:

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولُ: «لَا يَنْبَغِي أَنْ نَظُنَّ أَنَّ اللاَّهُوتَ شَبِيهٌ بِذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ حَجَرٍ نَقْشِ صِنَاعَةِ وَاخْتِرَاعِ إِنْسَانٍ.» (أَعْمَالِ الرُّسُلِ ١٧:٢٩). وَمَا يَقُولُهُ هَذَا يَعْنِي الْآتِي: لَيْسَ فَقَطْ طَبِيعَةُ اللاهُوتِ تَتَجَاوَزُ الأَشْكَالِ الْمَرْئِيَّةِ، إِنَّمَا أَيْضًا لَا يُمْكِنُ لِلذِّهْنِ البَشَرِيِّ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا، أَيِ أَنْ يَقُولَ مَنْ هُوَ اللهُ تَحْدِيدًا، فَكَيْفَ إِذًا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ للهِ ذُو شَكْلٍ بَشَرِيٍّ فِي الوَقْتِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ **بُولُس** أَنَّهُ لَا يُوجَدُ عَقْلٌ بَشَرِيٌّ يَقْدِرُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ جَوْهَرِ اللهِ؟ لِأَنَّ هَيْئَتَنَا وَشَكْلَنَا كُلَّنَا سَوْفَ نَسْتَطِيعُ بِسُهُولَةٍ أَنْ نُعَبِّرَ عَنْهُ بِأَفْكَارِنَا الخَاصَّةِ.

خَاتِمَةٌ عَنْ أَهَمِّيَّةِ الفَضِيلَةِ بِجَوارِ الإِيمَانِ:

مَرَّةً أُخْرَى أُودُّ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ الْآنَ عَنْ عَمَلِ الرَّحْمَةِ، غَيْرَ أَنَّ الْوَقْتَ لَا يُسْعِفُنَا. لِذَلِكَ سَوْفَ أَقْطَعُ حَدِيثِي، طَالَمَا سَأُعْطِيكُمْ الإِرْشَادَ التَّالِيَ وَهُوَ أَنْ تَحْفَظُوا فِي ذَاكِرَتِكُمْ بِدِقَّةٍ كُلَّ مَا قِيلَ، وَأَنْ تُظْهِرُوا اهْتِمَامًا كَبِيرًا لِلطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ لِلْحَيَاةِ كَيْ لَا يَكُونَ اجْتِمَاعُنَا هُنَا بِلَا هَدَفٍ أَوْ فَائِدَةٍ. لِأَنَّهُ إِنْ حَفِظْنَا الإِيمَانَ الْمُسْتَقِيمَ الأَرْثُوذُكْسِيَّ وَفِي نَفْسِ الوَقْتِ لَيْسَتْ هُنَاكَ فَضِيلَةٌ فِي أَعْمَالِنَا فَبِلَا شَكٍّ سَنُحْرَمُ مِنَ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ. فَإِنَّهُ يَقُولُ (الْمَسِيحُ):«لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ٧:٢١).

فَلْنَصْنَعْ إِرَادَةَ اللهِ بِغَيْرَةٍ عَظِيمَةٍ وَعَزِيمَةٍ حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نَدْخُلَ السَّمَاوَاتِ وَنَفُوزَ بِالْخَيْرَاتِ الْمَحْفُوظَةِ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّتِي نَتَمَنَّى أَنْ نَظْفَرَ بِهَا كُلُّنَا، **بِالنِّعْمَةِ وَمَحَبَّةِ الْبَشَرِ الَّتِي لِرَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي يَلِيقُ بِهِ مَعَ الآبِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ، الْمَجْدُ وَالْقُوَّةُ وَالْكَرَامَةُ، الآنَ وَكُلَّ أَوَانٍ وَإِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. آمِينَ.**

---

١) حرفيًّا = ***Πρόεδροι*** **پرويدري**، وهم الرؤساء، والمقصود الإكليروس أو الأساقفة بشكلٍ خاص.

٢) ٱلْمَقْصُودُ بِٱلْمُعَلِّمِ هُوَ ٱلْأُسْقُفُ **فِلَافِيَانُس**، وَٱلْمُشَاهِدُ هُوَ جُمْهُورُ ٱلْحُضُورِ ٱلْمُنْصِتُونَ لِلْقِدِّيسِ يُوحَنَّا ٱلذَّهَبِيِّ ٱلْفَمِ.

٣) حرفيًّا: نَحْنُ عُقْدَةَ مَا قُرِئَ عَلَيْنَا ٱلْيَوْمَ.

٤) هكذا بحسب النصّ المحقَّق في **SC** أمَّا في النَصّ **PG** «موسى الذي يَدَّعِي (الكاذبون اليهود) أنهم يصدقونه، ولكنهم كاذبون ولا يصدقونه، اسمع السيِّد المسيح الذي ينتقدهم قائلًا: ...»

٥) القول بأنَّ حديث الله بالجمع (لِنَعمَل) هو حديث الله مع الملائكة هي فكرة عند اليهود، كما يوضح القديس يوحنا الذهبي الفم صراحةً في تفسيره للمجموعة الكبيرة لسفر التكوين (عظة *PG 53,72 8,3*).

٦) «لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ.» (اشعياء ٦:٩).

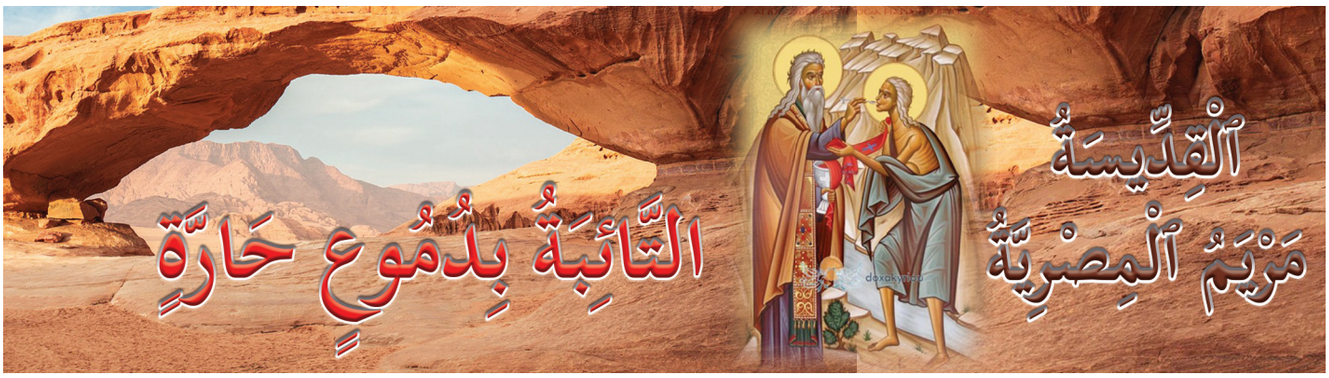

تُعَدُّ **القدّيسة مريم المصرية** (رقدت حوالي سنة ٤٢١م) إحدى أبرز الشخصيّات في التراث المسيحي الشرقي، إذ تُجسّد قصّتها عُمق فعل التوبة وقوة النعمة الإلهيَّة في تغيير الإنسان جذريًّا.

في ما يلي لمحة عن حياتها وارتباطها بفعل التوبة:

١) حياتها قبل التوبة:

وُلدت مريم المصرية في مصر (يُرجّح في الإسكندريّة) في منتصف القرن الرابع الميلادي ٣٤٤م. عاشت في شبابها حياةً بعيدةً عن الله، منغمسةً في اللذات والخطايا، حتى صارت مثالًا للخطيئة في محيطها. لم يكن الدافع الأساسي لخروجها إلى أورشليم هو دافع الإيمان، بل الاستمرار في المغريات واكتساب المتع الدنيويَّة.

٢) بداية رحلة التوبة: حدث التحوّل الأساسي في حياة مريم المصريَّة عندما أرادت الدخول إلى كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدّس) في أورشليم أثناء أحد الأعياد.

حاولت دخول الكنيسة مرارًا، لكنّ قوّة غير مرئيَّة كانت تمنعها من تخطّي عتبة الباب. شعرت مريم حينها بأنّ هذه القوّة الإلهيَّة تكشف عدم أهليّتها روحيًّا للدخول.

في **لحظة انكسار**، التفتت مريم إلى **أيقونة السيّدة العذراء** ورفعت صلاة حارّة طالبةً **شفاعة العذراء**، متعهّدةً بأن تغيّر حياتها بالكامل إذا سُمح لها بالدخول.

استجاب الله لندائها بإيمانٍ صادق، فتمكّنت من الدخول إلى الكنيسة هذه المرّة دون عائق، وهناك شعرت بانسكابٍ روحيٍّ عميق وقرّرت ترك حياتها السابقة نهائيًّا.

٣) الانتقال إلى حياة النسك في الصحراء:

بعد توبتها في أورشليم، أرشدتها **العذراء** إلى عبور نهر الأردن حيث

انطلقت إلى الصحراء عابرةً نحو حياة الزهد والنسك.

كان دير القدّيس يوحنّا المعمدان بجوار نهر الأردن أوّل مكان استقرّت فيه لفترة قصيرة، وتناولت من الأسرار المقدّسة علامةً على مصالحتها مع الله.

بعد ذلك سارت نحو عمق الصحراء وعاشت هناك حوالي ٤٧ عامًا في زهدٍ قاسٍ وصلاةٍ متواصلة وتوبةٍ لا تنقطع.

٤) ملامح التوبة في حياتها

العزلة والتجرّد: اختارت القدّيسة مريم النأي عن كل ما يذكّرها بالماضي الخاطئ، فآثرت الوحدة في برية قاسية، بلا مُعين بشري إلا الاتكال على نعمة الله.

الجهاد الروحي: واجهت هجمات التجربة وذكريات الخطايا السابقة بشدّة، فكانت تتلو المزامير والصلاوات وتستعين باسم يسوع المسيح لتطرد كل الأفكار والشهوات التي طاردتها.

التكفير بالنسك: شكّلت قسوة الحياة في الصحراء وسيلة لتدريب النفس على ضبط الأهواء ومواصلة التوبة. كانت تعيش على أعشاب البرية والقليل جدًّا من الماء، متحمّلةً حرّ النهار وبرد الليل.

الثبات في التوبة: استمرّت القديسة مريم على هذا النهج طول حياتها حتى تحرّرت تمامًا من ثقل الخطيئة، فوهبها الله نعمة الصفاء الداخلي وظهرت عليها علامات القداسة.

٥) لقاؤها مع القديس زوسيما:

تعرّف التقليد على قصّتها من خلال لقاء حصل بينها وبين القدّيس زوسيما في الصحراء.

في هذا اللقاء حكت له عن توبتها ومُعاناتها وجهادها الروحي على مدى سنواتٍ طويلة، وطلبت منه أن يناولها الأسرار المقدّسة في زياراته السنويّة للبرية أثناء الصوم الأربعيني.

بعد وفاتها اكتشف زوسيما جسدها ودفنه بتدبيرٍ إلهي، وقام بنقل قصّتها للعالم، فانتشرت سيرتها في الأوساط الرهبانيَّة والشعبيَّة.

٦) الدروس الروحيّة من توبة القدّيسة مريم المصرية:

قوّة النعمة الإلهيّة في تحويل أي إنسان: مهما كانت الخطيئة عظيمة، فإن باب التوبة مفتوح، وبإمكان النعمة الإلهيَّة أن تنتشل الإنسان من أشدّ السقطات.

ضرورة الاعتراف بالعجز: فقد اختبرت مريم أنَّ الخطوة الأولى للتوبة هي إقرارُ الإنسان بمحدوديّته وقصوره أمام عظمة الله غير المستقصاة، ثمّ طلب المعونة والتشفّع بأمّ النُّور العذراء مريم.

المثابرة في التوبة: التوبة ليست عملًا آنيًّا فحسب، بل مسارٌ طويلٌ من الجهاد الروحي، يغذّيه الثبات على الصلاة والصوم والتقشّف والتأمّل في محبّة الله.

الانسلاخ عن الماضي: اختارت مريم أن تترك مكان الخطايا وأجواءها، فكان انعزالها في البرية شهادةً لقوّة القرار الشخصي والابتعاد عن مصادر التعثُّر.

٧) مكانتها في التقليد الكنسي:

تُكرَّم القدّيسة مريم المصرية بشكل خاص في الكنيسة الأرثوذكسيَّة، ويُحتَفَل بذكراها في ١ أبريل (بحسب التقويم اليولياني) ، أو ١٤ أبريل من التقويم الغريغوريانى، وأيضًا تُذْكَر سيرتها بشكل بارز في الأحد الخامس من الصوم الكبير كصورةٍ حيّةٍ لقيمة التوبة الصادقة.

تُلهم حياتها العديد من المؤمنين للسعي نحو نقاوة القلب وحياة الزهد والتجرّد، وتذكّرهم بأن التوبة قادرة على تغيير حياة الإنسان تغييرًا جذريًّا.

خلاصة:

تُبرِزُ سِيرَةُ القِدِّيسَةِ مَرْيَمَ المِصْرِيَّةِ قُوَّةَ التَّوْبَةِ كَفِعْلٍ يُحَرِّرُ الإِنْسَانَ مِنْ قُيُودِ الخَطِيئَةِ، وَيَنْقُلُهُ إِلَى حَيَاةِ القَدَاسَةِ. تَحَوُّلُهَا مِنْ حَيَاةٍ غَارِقَةٍ فِي الشَّهَوَاتِ إِلَى أَحَدِ أَهَمِّ رُمُوزِ النُّسْكِ وَالتَّقْوَى فِي تَارِيخِ الكَنِيسَةِ، يُبَيِّنُ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ لَا حُدُودَ لَهَا، وَأَنَّ التَّوْبَةَ الصَّادِقَةَ قَدْ تَصِيرُ بَابًا لِلْقَدَاسَةِ وَالتَّحَرُّرِ الكَامِلِ مِنَ الخَطِيئَةِ.

مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الأَخْذِ

ما هو العطاء؟

العطاء هو فعل منح الآخرين دون انتظار مقابل، وهو قيمة إنسانيَّة وروحيَّة سامية تعكس الحبّ، الرَّحمة، والإحساس بالآخرين. العطاء ليس مجرد مساعدة ماديَّة، بل يشمل الكلمة الطيبة، الابتسامة، الوقت، المشورة، وحتى المغفرة.

أنواع العطاء:

العطاء المادي: مثل التصدق بالمال،تقديم المساعدات، وإعالة المحتاجين.

العطاء المعنوي: مثل التشجيع، التقدير، والمساندة النفسيَّة للآخرين.

العطاء الرُّوحي: كالصلاة من أجل الآخرين، ونشر القِيَم النبيلة.

العطاء بالعلم والمعرفة: مثل التعليم، وتوجيه الآخرين إلى الخير.

العطاء بالوقت: تقديم جزء من وقتك لمساعدة الآخرين أو الاستماع إليهم.

أهمية العطاء:

† **يجلب السعادة لمن يعطي ولمن يستقبل.**

† **يقوّي الروابط الاجتماعيَّة ويعزز المحبة بين الناس.**

† **يعبِّر عن الامتنان والشكر لله على نِعَمِهِ.**

† **يساهم في بناء مجتمع متماسك ومتعاون.**

يقول السيِّد المسيح: «مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الأَخْذِ» (أع ٢٠: ٣٥) وهذا يؤكد أن العطاء يجلب البركة والفرح أكثر من الأخذ.

خاتمة: العطاء لا يُقاس بمقداره، بل بروحه النابعة من المحبة وحب الخير. فالشخص الذي يمنح بفرح وصدق، ينال بركة عظيمة، لأن العطاء يعكس صورة الله فينا، تمامًا كما قدمت الأرملة المسكينة فلسيها تقدمة خالصة. (لوقا ٢١: ٢-٤) †

☜ للقديس يوحنا الذهبيّ الفم – تتمة ☞

أُعْطِيَ سُلطانًا ومَجْدًا:

وذاكَ الّذي حَقَّقَ كُلَّ هذا، سيكونُ **هو الدَّيّانُ** بَعدَ ذلك. ولاحِظْ كيفَ **تَنَبَّأَ الأنبياءُ** بذلك. فحَتّى هذا الأمرَ لم يَغْفُلوا عنه: بعضُهُم رَأَوْهُ بهذا الشَّكْلِ الّذي سيَظْهَرُ به، وبعضُهُم أَخْبَروا عن مَجيئِهِ بِكَلِماتِهِ.

فدانيالُ النَّبيُّ، بالرَّغْمِ مِن وُجودِهِ وسْطَ البابِلِيِّينَ البَرابِرة، رَأَى الرَّبَّ نازِلًا على سَحابةٍ. إسْمَعْ ماذا يَقولُ:«كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى اللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ السَّمَاءِ مِثْلُ ابْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى الْقَدِيمِ الأَيَّامِ، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ وَالأَلْسِنَةِ.» (دانيال ٧:١٣-١٤).

ويصف يوم الدينونة قائلًا: «كُنتُ أَرَى نُصِبَتْ عُرُوشٌ فَجَلَسَ شَيْخٌ طَاعِنٌ فِي السِّنِّ ... وَعَرْشُهُ لَهِيبُ نَارٍ، وَتَخْدِمُهُ أُلُوفٌ أُلُوفٌ، وَتَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ رَبَوَاتٌ رَبَوَاتٌ، فَجَلَسَ أَهْلُ القَضَاءِ وَفُتِحَتِ الأَسْفَارُ.» (دانيال ٧:٩-١٠ ترجمة سبعينية). وليس هذا فقط، بل أوضح الكرامة التي سيانالها الأبرار، قائلًا: «أَمَّا قِدِّيسُو الْعَلِيِّ فَيَأْخُذُونَ الْمَمْلَكَةَ وَيَمْتَلِكُونَ الْمَمْلَكَةَ إِلَى الأَبَدِ» وأيضًا: «وَالْمَمْلَكَةُ وَالسُّلْطَانُ وَعَظَمَةُ الْمَمْلَكَةِ» ... «تُعْطَى لِشَعْبِ قِدِّيسِي الْعَلِيِّ» (دانيال ٧:١٨-٢٧). ويتنبَّأ ملاخي النبي بأن قضاءه سيكون من نار، قائلًا: «وَمَنْ يَحْتَمِلُ يَوْمَ مَجِيئِهِ؟ وَمَنْ يَثْبُتُ عِنْدَ ظُهُورِهِ؟ لأَنَّهُ مِثْلُ نَارِ الْمُمَحِّصِ، وَمِثْلُ أُشْنَانِ الْقَصَّارِ.» (ملاخي ٣:٢).

أَرَأَيْتَ كيفَ تَنَبَّأَ الأَنْبِياءُ بِكُلِّ ما سيَحْدُثُ، وبِمُنْتَهى الدِّقَّةِ؟

كيفَ تَجْرُؤُ إذًا أَنْ تَبقى في عَدَمِ إيمانِكَ، ودونَ أَنْ تَتَحَقَّقَ مِن كُلِّ شَيءٍ، بَعْدَ أَنْ صارَ في مُتَناوَلِ يَدِكَ كُلُّ هذِهِ البَراهينِ الّتي تُثْبِتُ قُوَّتَهُ، ونُبُوءاتٍ قد قِيلَتْ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، ما دُمْتَ تَرَى أَنَّ الأَحْداثَ كُلَّها تَتَطابَقُ معَ النُّبوءاتِ؟

ومِن حَيثُ إنَّ كُلَّ هذا لَيسَ مِن وَحْيِ خَيالِنا، فإنَّ ما يَشْهَدُ على ذلك هُم أُولئكَ الَّذين قَبِلوا هذِهِ الأَسفارَ المُقَدَّسَةَ، وما زالوا يَحْفَظونَها حتّى الآن، بالرَّغْمِ مِن أَنَّهُم أعداؤُنا وخُلفاءُ صالِبِي المسيح.

وقد يَتَساءَلُ البَعْضُ: «وكيفَ لَمْ يُؤمِنوا، على الرَّغْمِ مِن أَنَّ هذِهِ الكُتُبَ المُقَدَّسَةَ بَينَ أَيْدِيهِم؟» بِمُنْتَهى البَساطةِ، لأَنَّهُم - بالرَّغْمِ مِن رُؤْيَتِهِم لِلْمُعْجِزاتِ الَّتي صَنَعَها المسيحُ - لَم يُؤمِنوا. لَكِنَّ هذِهِ لَيسَت خَطيَّةَ غَيْرِ المُؤْمِنِ، بل خَطيَّةُ الَّذِينَ لا يَرَوْنَ في وَضَحِ النَّهارِ.

إنَّ هَذا العالَمَ مِثْلُ آلَةٍ مُوسِيقيَّةٍ مُتَجانِسَةٍ وُضِعَتْ في المُنْتَصَفِ، وتَنْسابُ مِنْها الأَلْحانُ، وتُمَجِّدُ الخالِقَ.

وبِالرَّغْمِ مِن كُلِّ ذَلِكَ، هُنالِكَ بَعْضُ النَّاسِ يَقولونَ: «إِنَّ كُلَّ ما في الخَليقَةِ قَد صارَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِهِ أو بِالصُّدْفَةِ»، والبَعْضُ الآخَرُ يَقولونَ: «إِنَّ كُلَّ ما نَرَاهُ هُوَ بِلا بِدايَةٍ».

وآخَرونَ يُنْسِبونَ الخَلْقَ والعِنايَةَ بِالخَليقَةِ إِلى آلِهَةٍ كَثيرَةٍ، وآخَرونَ يُنْسِبونَ الخَلْقَ إِلى قُوَّةٍ خالِقَةٍ، وَإِلى حَرَكَةِ دَوَرانِ النُّجومِ.

وبالتَّأكيد، لَيْسَ هَذا خَطَأَ الخالِقِ؛ لأَنَّ النَّقْدَ واللَّوْمَ يُوَجَّهُ إِلى أُولئِكَ الَّذِينَ يُعانُونَ مِن أَسْوَإِ أَنْواعِ العِلَلِ، في حينِ أَنَّ كُلَّ هذِهِ الأَدْوِيَةِ في مُتَناوَلِ الجَميعِ.

مِثْلُ النَّفْسِ: عندما تَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ، تَفْهَمُ ما يَنْبَغِي فِعْلُهُ، دُونَ أَنْ تَحْتاجَ إِلى مُساعَدَةٍ كَبيرَةٍ.

أَمَّا عِنْدَما تَكونُ جاحِدَةً وبِلا إِحْساسٍ، فَحَتَّى وإِنْ كانَ لَدَيها قادَةٌ كَثيرونَ - خُصوصًا إِذا كانَتْ أَسيرَةً لِشَهَواتِها - فَسَتَبْقى في عَمَاها.

اِنْتَبِهْ إِلى أَنَّ هَذا الأَمْرَ يَحْدُثُ في كُلِّ مَكانٍ، ولَيْسَ فَقَطْ في هَذِهِ الحالَةِ، بَلْ وفي حالاتٍ أُخْرَى. كَمْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لا يَخْضَعُونَ لِلنَّواميسِ يُمْكِنُهُم أَنْ يَفْتَخِروا بِكَيْفِ عاشوا حَياةً مُكَرَّمَةً بِالكامِلِ؛ وَلَكِنَّ البَعْضَ أَيْضًا، وَإِنْ كانوا قد عاشوا بِهذِهِ النَّواميسِ مُنْذُ حَداثَتِهِم

وحتّى سِنِّ الشَّيْخوخَةِ، لَمْ يَتَوَقَّفوا عَنْ مُخالَفَتِها.

نَفْسُ الأُمورِ قَد حَدَثَتْ آنَذاكَ؛ بِمَعْنى أَنَّ اليَهُودَ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُم قَد رَأَوْا آياتٍ وعَجائِبَ كَثيرَةً، إِلّا أَنَّهُمْ لَمْ يَصيروا أَفْضَلَ.

عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ **أَهْلَ نِينَوَى** بِسَماعِهِمْ لِنِداءٍ واحِدٍ فَقَطْ، تَغَيَّروا وَتَخَلَّصوا مِنَ الخَطِيَّةِ؛ ويُمْكِنُ التَّأْكيدُ مِنْ ذَلِكَ عَنْ طَريقِ رِجالٍ لَيْسوا فَقَطْ ذَوي شَأْنٍ، بَلْ أَيْضًا رِجالٍ بُسَطاءَ لا شَأْنَ لَهُمْ.

كَمْ مِنَ التَّعْليمِ سَمِعَ **يَهُوذَا** مِنْ مُعَلِّمِهِ (المسيح)، ومَعَ ذَلِكَ صارَ خائِنًا! وأَيُّ نَصيحَةٍ سَمِعَ اللِّصُّ عَلَى الصَّليبِ؟ ومَعَ هَذا آمَنَ بِالرَّبِّ وهُوَ عَلَى الصَّليبِ، ومَجَّدَ مَلَكوتَهُ.

يَنْبَغي أَلاَّ تَحْكُمَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ بِناءً عَلَى آرَاءِ الفاسِدينَ، بَلْ تَحْكُمَ أو تُمَيِّزَ أُولئِكَ الَّذينَ يُفَكِّرُونَ بِالصَّوابِ أو بِشَكْلٍ صَحيحٍ، مُسْتَنِدينَ إِلى الحَقيقَةِ أَنَّ اليَهودَ لَمْ يُؤْمِنُوا، وآمَنَ الوَثَنِيُّونَ.

وَلَمْ يَصْمُتِ الأَنْبِياءُ؛ فَقَدْ صَرَخَ داوُدُ قَائِلًا: «الشعب الذي لم أعرفهُ يتعبَّد لي، الغرباء يتذلَّلون لي ... ويخرجون من حصونهم مرتعدين» (مز ١٧:٤٤-٤٦ السبعينيَّة). أيضًا يقول أشعياء النبيّ: «مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا، وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟» (أشعياء ٥٣:١). وفي موضع آخر يقول: «أَصْغَيْتُ إِلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْأَلُوا. وُجِدْتُ مِنَ الَّذِينَ لَمْ يَطْلُبُونِي.» (أشعياء ٦٥:١).

وَعِنْدَما تَجَسَّدَ المسيحُ عَلَى الأَرْضِ، آمَنَتْ بِهِ امْرَأَةٌ كَنْعانِيَّةٌ، وَأُخْرَى سامِرِيَّةٌ؛ بينما الكَهَنَةُ وقادَةُ الشَّعْبِ حارَبوهُ وتآمَروا عليه، ومَنَعوا الآخرينَ أَنْ يُؤْمِنوا، والَّذينَ آمَنوا طَرَدوهُم مِنَ المَجْمَعِ.

لا تَتَعَجَّبْ مِن هذِهِ الأُمورِ أَبَدًا؛ لأَنَّ حَياتَنا مَليئَةٌ بِهذِهِ النَّتائِجِ، سَواءٌ في عَصْرِنا هَذا، أَو في الأَزْمِنَةِ القَديمَةِ.

بَعْدَ ذَلِكَ، إِن لَمْ يَكُنِ الجَميعُ، فَعَلَى الأَقَلِّ الكَثيرُونَ مِنَ اليَهودِ آنَذاكَ - والآنَ أيضًا - قد آمَنوا.

بالطَّبْعِ، لَيْسَتْ هذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يُسْمَعُ فيها هَذا الكَلامُ، وليس أَمْرًا غَريبًا أَنْ لَمْ يُؤْمِنِ الجَميعُ.

لِأَنَّ هَذا هُوَ الجُحودُ بِعَيْنِهِ، وهَذا هُوَ الفِكْرُ غَيْرُ المَعْقُولِ والمُخالِفُ لِلصَّوابِ؛ هذِهِ هِيَ النَّفْسُ الإِنْسانِيَّةُ الَّتي أُسِرَتْ بِالشَّهَواتِ.

أبوابُ الجحيم لن تقوى عليها:

وبَعْدَما ذَكَرْنا جَميعَ النُّبُوءَاتِ الَّتي نَطَقَ بِها الأَنْبِياءُ عَنِ المَسيحِ، والتي أَخْبَروا بِها مُنذُ سَنَواتٍ بَعيدةٍ، لِنَتَقَدَّمْ نَحْوَ تِلكَ النُّبُوءَاتِ الَّتي تَحَقَّقَتْ في المُستَقبَلِ، حينَ جالَ المَسيحُ يَصْنَعُ خَيْرًا ويُعاشِرُ البَشَرَ، حتّى نُدرِكَ مِن خِلالِ هذا الجانِبِ مَدى قُوَّتِه.

فَإِنَّهُ نَزَلَ على الأَرْضِ، وتَأَلَّمَ مِن أَجْلِ خَلاصِ كُلِّ البَشَرِ وغُفْرانِ خَطاياهم؛ ولاحِظْ ما يَفْعَل: يُجْري مُعجِزاتٍ ويُخبِرُ بِبَعضِ الأُمورِ الَّتي سَتَحْدُثُ بَعدَ سَنَواتٍ، مُبيِّنًا لِسامِعيهِ في ذَلِكَ الوَقْتِ - مِن خِلالِ كُلِّ ما تَمَّ - أَنَّ كُلَّ ما سَيَحْدُثُ بَعدَ وَقْتٍ طَويلٍ سَيَتَحَقَّق.

وأَيْضًا أَثْبَتَ لَهُمْ صِحَّةَ كُلِّ ما تَنَبَّأَ بِهِ، وكيف سَيَتِمُّ ذَلِكَ، مِن خِلالِ تَحقيقِ ما تَنَبَّأَ بِهِ، ومِن خِلالِ مُعجِزاتِهِ الَّتي أَجْراها في ذَلِكَ الوَقْتِ.

وهكذا فَإِنَّهُ بِهَذا الدَّليلِ المُزدَوِجِ، رَبِحَ إِيمانَهُم بِمَلَكوتِ السَّماواتِ.

لِأَنَّ النُّبُوءَاتِ الخَاصَّةَ بِهِ كانَتْ مُزْدَوِجَةً؛ بِمَعْنَى أَنَّ بَعْضَ النُّبُوءَاتِ سَتَتَحَقَّقُ في هَذِهِ الحَياةِ، وَالبَعْضَ الآخَرَ سَيَتَحَقَّقُ بَعْدَ نِهايَةِ هَذَا العَالَمِ الحاضِرِ. **وَكُلُّ نُبُوءَةٍ تَدْعَمُ الأُخْرى، وَتُساعِدُها عَلَى التَّأْكِيدِ بِأَنَّها سَتَتَحَقَّقُ فِعْلًا**، أَيْ **إِنَّها حَقِيقَةٌ**.

سَأَذْكُرُ لَكُم مِثالًا، لِأَنَّ عِبارَتي غَيرُ مَفْهُومَةٍ، وَلِذَلِكَ سَأُحاوِلُ أَنْ أَجْعَلَها سَهْلَةَ الفَهْمِ.

لَقَدْ تَبِعَ المَسيحَ اثْنا عَشَرَ تِلْمِيذًا؛ أَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلى الكَنيسَةِ، فَلَيْسَ فَقَطْ لَمْ يُفَكِّرْ أَحَدٌ في وُجُودِها، بَلْ ولا في اسْمِها، لِأَنَّ المَجْمَعَ آنَذاكَ كانَ في حالَةِ ازْدِهارٍ.

وَلَكِنْ ماذا قالَ المَسيحُ، وما الَّذي تَنَبَّأَ بِهِ وأَخْبَرَ بِهِ، في الوَقْتِ الَّذي كانَتْ فيهِ المَسْكونَةُ جَميعُها تَقْريبًا غارِقَةً في الكُفْرِ وَالجُحودِ؟ قال: «عَلَى هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا» (متى ١٦:١٨). **اِفْحَصْ جَيِّدًا هَذا القَوْلَ كَما تُريدُ**؛ وَسَتَرى أَنَّ حَقيقَتَهُ سَتَكُونُ مُشْرِقَةً، لِأَنَّهُ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ ما يَسْتَحِقُّ الإِعْجابَ، لَيْسَ فَقَطْ أَنَّهُ أَسَّسَها في كُلِّ المَسْكونَةِ، بَلْ إِنَّهُ جَعَلَها غالِبَةً ومُنْتَصِرَةً، ولا يُمْكِنُ أَنْ تُقْهَرَ، رَغْمَ كُلِّ الضَّرَباتِ الَّتي وَجَّهَها إِلَيْها مُقاوِمُوها.

وعِبارَةُ: «أَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا»، تَعني الأَخْطارَ الَّتي تَقودُ إِلَى الجَحيمِ.

أَرَأَيْتَ كَمْ هِيَ حَقِيقِيَّةٌ هذِهِ النُّبُوءَةُ؟ أَرَأَيْتَ النَّتيجَةَ الحَقيقِيَّةَ؟ هَلْ رَأَيْتَ كَلِماتٍ مِثْلَ هذِهِ تَتَحَوَّلُ إِلى أَعْمالٍ، وَقُوَّةٍ لا تُقْهَرُ، وَتُحَقِّقُ كُلَّ شَيْءٍ دُونَ صُعوباتٍ؟

إِذًا لا تَعْبُرْ عَلى هذِهِ العِبارَةِ دُونَ تَوَقُّفٍ: «أَبْنِي كَنِيسَتِي»، لِأَنَّها بُنِيَتْ سَريعًا في وَقْتٍ وَجيزٍ. فَلْتُجْهِدْ ذِهْنَكَ وَلْتَشْعُرْ بِمَدَى أَهَمِّيَّةِ ذَلِكَ، أَنَّ الأَرْضَ الوَاسِعَةَ الشَّاسِعَةَ، الَّتي تُمْتَدُّ تَحْتَ الشَّمْسِ، قَدِ امْتَلأَتْ بِالكَنائِسِ في فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ وَجيزَةٍ جِدًّا.

وأُمَمٌ كَثيرَةٌ آمَنَتْ بِالمَسيحِ، وَقَدْ غَيَّرَ هُوَ رُؤَى وأَفْكارَ شُعُوبٍ بِأَكْمَلِها، وأَبْطَلَ العاداتِ القَديمَةَ، واقْتَلَعَ عاداتٍ وَتَقاليدَ مِنْ جُذُورِها، وأَوْقَفَ طُغْيانَ المُتَعِ وَالشَّهَواتِ، وقَضَى عَلى قُوَّةِ الشَّرِّ، وأَلْغَى مَذابِحَ وَهياكِلَ، وأَوْثانًا وَمُمارَساتٍ وَاحْتِفالاتٍ وَثَنِيَّةً، والأَبْجَرَةَ الكَريهَةَ بَدَّدَها، وأَقامَ المَائِدَةَ المُقَدَّسَةَ في كُلِّ مَكانٍ: في مَوْطِنِ الرُّومانِ، والفُرسِ، والسِّكيثِيِّينَ، وَالهِنْدِ

ماذا أَقولُ؟ فَالأَمْرُ يَتَعَدَّى المَناطِقَ الخاصَّةَ بِنا، لأَنَّ أَهْلَ الجُزُرِ البريطانِيَّةِ – بِالرَّغْمِ مِن أَنَّها خارِجُ حُدُودِ بَحْرِ الرُّومِ (البَحْرِ المُتَوَسِّطِ)، إِذْ هِيَ فِي المُحيطِ– شَعَرُوا بِقُوَّةِ الكَلِماتِ الإِلَهِيَّةِ، لأَنَّهُ هُنَاكَ، بِالطَّبْعِ، تَأَسَّسَتْ كَنائِسُ وَمَوائِدُ مُقَدَّسَةٌ.

تِلْكَ الكَلِماتُ الَّتي تَكَلَّمَ بِها آنَذاكَ، قَدْ نَمَتْ في نُفُوسِ الجَميعِ، وتَتَرَدَّدُ عَلَى أَلْسِنَةِ الكُلِّ.

وَلْنَقُلْ إِنَّ كُلَّ الأَرْضِ قَدْ تَنَقَّتْ مِنْ أَشْواكِ الخَطيئَةِ الَّتي كانَتْ تُمْلَؤُها، وصارَتْ حَقْلًا نَقِيًّا، واسْتَقْبَلَتْ بُذُورَ التَّقْوى.

ومِنْ حَيْثُ إِنَّ لا أَحَدًا اعْتَرَضَ، وَأَنَّ السَّلامَ قَدْ عَمَّ، فَهَذا أَمْرٌ لَهُ أَهَمِّيَّةٌ،

وَيُوَضِّحُ مَدَى اسْتِعْلانِ الْقُوَّةِ الإِلَهِيَّةِ. وَهَكَذا اسْتَطاعَ أَنْ يُخَلِّصَ كُلَّ الْمَسْكونَةِ مِنَ الْعاداتِ الشِّرِّيرَةِ الَّتي سادَتْ عَلَى الْجَميعِ سَنَواتٍ طَويلَةٍ، وأَنْ يَقُودَها إِلى عاداتٍ أُخْرى. وَلَمْ يُحارِبِ الْعاداتِ الْقَديمَةَ فَقَطْ، بَلْ وَضَبَطَ الشَّهَواتِ وَالْمُتَعَ؛ وَكِلاهُما (الْعاداتُ الْقَدِيمَةُ والشَّهَواتُ) تَسُودُ عَلى أَصْحابِها. **لأَنَّ ما وَرِثَهُ الْبَشَرُ مُنْذُ سَنَواتٍ طَويلَةٍ، مِنْ آبائِهِمْ وَأَجْدادِهِمْ، والأَجْدادِ الْبَعيدينَ، وَالْفَلاسِفَةِ وَالْخُطَباءِ، كُلُّ هَذا الْمِيراثِ اقْتَنَعُوا أَنْ يَتْرُكُوهُ**؛ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ أَمْرًا غايَةً فِي الصُّعُوبَةِ أَنْ يَقْبَلُوا عادَةً أَوْ تَقْلِيدًا جَدِيدًا، بَلْ وَتَقْلِيدًا لَهُ مُتَطَلَّباتٌ صَعْبَةٌ. **وَهَذا الأَمْرُ يُعَدُّ أَكْثَرَ ثِقَلًا عَلَيْهِمْ.**

إِذًا، فقدْ أَبْعَدَ الشَّهَواتِ والمَلَذّاتِ، وقادَنا إِلى الصَّوْمِ، وأَزالَ شَهْوَةَ المالِ، وسَمَا بِالفَقْرِ، ومَحَا القُبْحَ والبَذاءَةَ، وحَمَلَ لنا الحِكْمَةَ والهُدوءَ.

أَوْقَفَ الغَضَبَ، وحَلَّتِ الوَداعَةُ مَحَلَّهُ، وانتَزَعَ الحِقْدَ والحَسَدَ مِنَ النُّفُوسِ، وحَمَلَ لنا النِّيَّةَ الحَسَنَةَ الطَّيِّبَةَ، أَبْعَدَنا عَنِ الطَّرِيقِ الواسِعِ الرَّحْبِ، وقادَنا إِلى الطَّرِيقِ الضَّيِّقِ الصَّعْبِ. «ادْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ، لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ، وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ! مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَهُ!» (متى ٧: ١٣-١٤).

ولَمْ يَقُدْ أُناسًا آخَرِينَ عاشُوا خارِجَ هَذا العالَمِ، وبَعِيدًا عَنْ هذِهِ العاداتِ، بَلْ قادَ أُولَئِكَ الَّذِينَ فَسَدُوا داخِلَ كُلِّ هذِهِ العاداتِ والشَّهَواتِ، الَّذِينَ صارُوا أَكْثَرَ لُيُونَةً مِنَ الشَّمْعِ.

هؤُلاءِ أَمَرَهُم أَنْ يَسْلُكُوا الطَّرِيقَ الضَّيِّقَ المُؤْلِمَ والصَّعْبَ، وَجَعَلَهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَكَمْ عَدَدُ الَّذِينَ أَقْنَعَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا؟ لَيْسَ اثْنَيْنِ أَوْ عَشَرَةً أَوْ عِشْرِينَ، أَوْ مِائَةً، بَلِ الجَمِيعُ تَقْرِيبًا، كُلُّ الَّذِينَ سَكَنُوا تَحْتَ الشَّمْسِ.

وَما نَوْعِيَّةُ البَشَرِ وعَدَدُهُمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُم؟ إِنَّهُمْ أَحَدَ عَشَرَ تِلْمِيذًا فَقَطْ، عَدِيمِي المَعْرِفَةِ، عَامِيِّينَ، لا مَكانَةَ لَهُمْ، فُقَراءَ، بِلا وَطَنٍ، بِلا ثَرْوَةٍ، بِلا قُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ وَمَجْدٍ ظاهِرٍ، بِلا أُصُولٍ نَبِيلَةٍ، لَيْسَتْ لَدَيْهِم قُوَّةُ الكَلِمَةِ، ولا إِمْكانِيَّاتٌ خِطابِيَّةٌ، ولا مَعارِفُ مُمَيَّزَةٌ؛ بَلْ صَيَّادُو سَمَكٍ وصانِعُو خِيَامٍ، وَيَتَكَلَّمُونَ لُغَةً مُخْتَلِفَةً.

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَكَلَّمُونَ مَعَ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَرَزُوا لَهُمْ بِلُغَتِهِمِ العِبْرِيَّةِ (الَّتِي كانَتْ لُغَةً غَرِيبَةً وَمُخْتَلِفَةً عَنْ كُلِّ اللُّغاتِ الأُخْرَى). ومَعَ هَذا كُلِّهِ، فَقَدْ أَسَّسَ الكَنِيسَةَ الَّتِي امْتَدَّتْ مِن أَطْرافِ المَسْكونَةِ إِلَى أَطْرافِها الأُخْرَى، بِواسِطَةِ هَؤُلاءِ النَّاسِ (الرُّسُلِ).

وَلَيْسَ هَذا فَقَطْ هُوَ الْمُثِيرُ لِلإِعْجابِ، بَلْ إِنَّ هَؤُلاءِ النَّاسَ البَسَطاءَ، الْفُقَراءَ، الَّذِينَ لَيْسُوا ذَوِي شَأْنٍ، الْجُهَلاءَ، وَالْمُزْدَرَى بِهِمْ، الْمُتَكَلِّمِينَ بِلُغَةٍ غَرِيبَةٍ، الْمُحْتَقَرِينَ، قَدْ تَعَهَّدُوا بِتَغْيِيرِ الْمَسْكُونَةِ كَافَّةً، وَأَخَذُوا وَصِيَّةً بِأَنْ يَقُودُوا النَّاسَ إِلَى أُمُورٍ صَعْبَةٍ.

إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يُحَقِّقُوا كُلَّ هَذا فِي مُناخٍ مَمْلُوءٍ بِالسَّلامِ، بَلْ وَاجَهُوا حُرُوبًا كَثِيرَةً شُنَّتْ ضِدَّهُمْ. فَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى كُلِّ دَوْلَةٍ وَكُلِّ مَدِينَةٍ. لَكِنْ ماذا أَقُولُ؟ هَلْ ذَهَبُوا فَقَطْ إِلَى كُلِّ دَوْلَةٍ وَمَدِينَةٍ؟

لَقَدْ شُنَّتْ حَرْبٌ ضِدَّهُمْ فِي كُلِّ بَيْتٍ، إِلَّا أَنَّ تَعْلِيمَهُمْ امْتَدَّ، وَكَثِيرًا مَا حَدَثَ أَنْ انْفَصَلَ الابْنُ عَنْ أَبِيهِ، وَالْعَرُوسُ عَنْ حَمَاتِهَا، وَالأَخُ عَنْ أَخِيهِ، وَالْخَادِمُ عَنْ سَيِّدِهِ، وَالْمُوَاطِنُ عَنِ الرَّئِيسِ، وَالزَّوْجُ عَنْ زَوْجَتِهِ، وَالزَّوْجَةُ عَنْ زَوْجِهَا، وَالأَبُ عَنِ ابْنِهِ، لأَنَّ الْجَمِيعَ لَمْ يُؤْمِنُوا مَعًا.

وَهَذَا قَدْ أَفْرَزَ مُشَاحَناتٍ يَوْمِيَّةً، وَحُرُوبًا مُسْتَمِرَّةً، أَسْفَرَتْ عَنْ وُقُوعِ كَثِيرٍ مِنَ الْقَتْلَى. وَهَذَا مَا جَعَلَ الرُّسُلَ مَوْضِعَ بُغْضَةٍ، كَأَعْدَاءٍ وَخُصُومٍ حَقِيقِيِّينَ، فَطَارَدَهُمُ الْجَمِيعُ وَلاحَقُوهُمْ، سَوَاءٌ أَكانُوا مُلُوكًا أَمْ رُؤَسَاءَ، أَمْ مُوَاطِنِينَ، أَمْ أَحْرَارًا، أَمْ عَبِيدًا، أَمْ شُعُوبًا وَمُدُنًا.

وَالأَسْوَأُ مِنْ كُلِّ هَذَا، أَنَّهُمْ لَمْ يُلاحِقُوا هَؤُلاءِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا الْمَسِيحِيِّينَ المُعَمَّدِينَ الْجُدُدَ، الَّذِينَ عَلَّمَهُمُ الرُّسُلُ مَبَادِئَ الإِيمَانِ المَسِيحِيِّ. فَقَدْ كَانَتِ الْحَرْبُ وَاحِدَةً؛ فَهِيَ بِذَاتِهَا ضِدَّ التَّلامِيذِ، وَضِدَّ الْمُعَلِّمِينَ، لأَنَّ الْكِرَازَةَ اعْتُبِرَتْ مُضَادَّةً لِلأَوَامِرِ الْمَلَكِيَّةِ، وَلِلْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالأَعْرَافِ الْقَدِيمَةِ.

لأَنَّ الرُّسُلَ نَصَحُوهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا عِبَادَةَ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يَحْتَقِرُوا الْمَذَابِحَ الَّتِي كَانَ آبَاؤُهُمْ وَأَجْدَادُهُمْ يَتَعَبَّدُونَ عَلَيْهَا، وَأَنْ يَهْجُرُوا التَّعَالِيمَ الْبَغِيضَةَ، وَيَسْخَرُوا مِنِ احْتِفَالاتِهِمْ، وَأَنْ يَتَحَوَّلُوا عَنْ مُمَارَسَاتِهِمْ؛

وَهَذَا الأَمْرُ بَدَا لَهُمْ مُفْزِعًا لِلْغَايَةِ، وَأَكْثَرَ رُعْبًا مِنْ أَيِّ شَيءٍ آخَرَ، وَأَنَّهُمْ سَيُسَخِّرُونَ نُفُوسَهُمْ لأَجْلِهِمْ، أَكْثَرَ مِنْهُ قُبُولًا لِكِرَازَةِ الرُّسُلِ، وَأَنْ يُؤْمِنُوا بِابْنِ اللهِ، ذَاكَ الَّذِي سُلِّمَ لِلْمُحَاكَمَةِ، وَالَّذِي بُصِقَ عَلَيْهِ، وَعَانَى آلامًا غَيْرَ مَحْدُودَةٍ، وَاحْتَمَلَ مَوْتًا مُهِينًا، ثُمَّ قُبِرَ وَقَامَ.

والعَجِيبُ أَنَّ كُلَّ ما لَهُ عَلاقَةٌ بِآلامِهِ كانَ مَعْرُوفًا لِلْجَمِيعِ: أَيِ الجَلْدُ، واللَّطْمُ، والإِهاناتُ والشَّتائِمُ، والبَصْقُ على الوَجْهِ، والصَّلِيبُ، والسُّخْرِيَةُ، والقَبْرُ الَّذي أُعْطِيَ لَهُ كَتَقْدِمَةٍ.

إِلَّا أَنَّ كُلَّ ما لَهُ عَلاقَةٌ بِالْقِيامَةِ، لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا عَلَى الإِطْلاقِ؛ لأَنَّهُ عِنْدَما قامَ، ظَهَرَ لِلرُّسُلِ فَقَطْ.

ولكِنَّهُم عِنْدَما كانوا يُبَشِّرُونَ بِالْقِيامَةِ فَقَطْ، صارُوا مَوْضِعَ تَصْدِيقٍ، وَهَكَذَا أَسَّسُوا الكَنِيسَةَ.

كَيْفَ وَبِأَيَّةِ طَرِيقَةٍ؟ بِقُوَّةِ ذَاكَ الَّذِي سَبَقَ وَحَدَّدَ كُلَّ هَذِهِ الأُمُورِ؛ لأَنَّ المَسِيحَ لَهُ المَجْدُ هُوَ الَّذِي أَعَدَّ الطَّرِيقَ، وَجَعَلَ الصَّعْبَ سَهْلًا.

بِالطَّبْعِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ قُوَّةٌ إِلَهِيَّةٌ قَدْ رافَقَتِ الرُّسُلَ فِي الكِرازَةِ، والَّتِي حَقَّقَتْ كُلَّ هَذَا النَّجاحِ، فَما كانَ لَهُمْ أَنْ يَتَحَرَّكُوا، ولا كانَتْ هُنَالِكَ بَدايَةٌ.

وَكَيْفَ تَحَقَّقَ كُلُّ هَذَا؟ بِبَسَاطَةٍ، إِنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، والَّذِي قالَ: «**لِيَكُنْ نُورٌ**» **فَكانَ نُورًا، والَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِكَلِمَتِهِ، هُوَ الَّذِي زَرَعَ هَذِهِ الكَنائِسَ** (أَيْ أَسَّسَهَا).

وعِبارَةُ «أَبْنِي كَنِيسَتِي» **تَعْنِي أَنَّ الكَنِيسَةَ هِيَ الَّتِي سَتُحَقِّقُ كُلَّ شَيْءٍ**؛ هَكَذَا هِيَ كَلِمَاتُ اللهِ، تُنْجِزُ أَعْمَالًا تَسْتَحِقُّ الإِعْجابَ وَالدَّهْشَةَ.

كَذَلِكَ أَنَّهُ عِنْدَما قالَ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا» (تك ١: ١١)، عَلَى الفَوْرِ أَصْبَحَ كُلُّ شَيءٍ فِرْدَوْسًا، وَمَرْعًى أَخْضَرَ، وَالأَرْضُ الَّتِي تَلَقَّتِ الأَمْرَ تَزَيَّنَتْ بِنَبَاتَاتٍ لا حَصْرَ لَهَا. **هَكَذَا الآنَ يَقُولُ المَسِيحُ لَهُ المَجْدُ**: «أَبْنِي كَنِيسَتِي»، ، **وَقَدْ تَحَقَّقَ هَذَا عَلَى الفَوْرِ**، ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ قَدْ تَسَلَّحَ ضِدَّهَا مُلُوكٌ، وَوَجَّهُوا جُنُودَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ نَحْوَهَا، وَثَارَ

ضِدَّهَا شُعُوبٌ أَكْثَرُ جُنُونًا مِنِ انْتِشَارِ النَّارِ المُحْرِقَةِ، وَقَاوَمُوهَا خُطَبَاءُ، وَحُكَمَاءُ، وَأَغْنِيَاءُ، وَمُواطِنُونَ بُسَطَاءُ، وَرُؤَسَاءُ. فَقَدْ قَامَ عَلَيْهَا الْجَمِيعُ. **لَكِنَّ كَلِمَةَ الكِرَازَةِ قَدْ وَصَلَتْ، وَأَحْرَقَتِ الأَشْوَاكَ** أَشْوَاكَ الخَطِيئَةِ وَالخِدَاعِ بِأَكْثَرَ اندِفاعٍ مِنِ اندِفاعِ النَّارِ، ؛ إِذْ تَنَقَّتِ الحُقُولُ، وَبُدِرَتْ كَلِمَاتُ التَّعْلِيمِ، وَبَيْنَمَا ظَلَّ بَعْضُ المُؤْمِنِينَ فِي السِّجْنِ، وَطُرِدَ آخَرُونَ مَنْفِيِّينَ، وَفَقَدَ آخَرُونَ ثَرْوَاتِهِمْ، وَقُتِلَ آخَرُونَ وَذُبِحُوا، وَأُلْقِيَ بِآخَرِينَ فِي النَّارِ، وَغُرِّقَ آخَرُونَ فِي البَحْرِ، وَنَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ كُلَّ أَنْوَاعِ الآلَامِ، وَأُهِينُوا، وَطَرَدُوا البَعْضَ الآخَرَ كَأَعْدَاءٍ حَقِيقِيِّينَ، **إِلَّا أَنَّهُ قَدِ انْضَمَّ إِلَى الكَنِيسَةِ كَثِيرُونَ، وَلَيْسَ فَقَطْ لَمْ يَتَرَاجَعُوا عَنْ شَهَادَاتِهِم لِلْمَسِيحِ، بَلْ بِكُلِّ رَغْبَةٍ دَاخِلِيَّةٍ، انْطَلَقُوا لِيَنْقَضُّوا عَلَى هَذَا الصَّيْدِ الثَّمِينِ.**

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، اصْطَادُوا لا بِالإِجْبارِ ولا بِالقَهْرِ، بَلْ بِإِرادَتِهِم، مُتَّبِّنَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ قَادُوهُمْ إِلَى هَذَا الطَّرِيقِ.

ناظِرِينَ إِلَى أَنْهارِ الدَّمِ الَّتِي جَرَتْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، فَقَدْ صارُوا أَكْثَرَ تَمَسُّكًا بِإِيمَانِهِم، بَلْ أَشَدَّ مِنَ الشُّجْعانِ الجَسُورِينَ، ولَيْسَ فَقَطْ أَكْثَرَ مِنَ التَّلامِيذِ، بَلْ أَيْضًا فَاقُوا حَمَاسَةَ المُعَلِّمِينَ.

فَالبَعْضُ مِنْهُمْ سُجِنَ، وَالبَعْضُ الآخَرُ نُفِيَ، وَالبَعْضُ جُلِدَ، وَالبَعْضُ الآخَرُ عانى آلامًا لا حَصْرَ لَهَا؛ ولا سيَّما أُولَئِكَ الَّذِينَ صارَتْ لَهُمْ مَكَانَةٌ وَأَهَمِّيَّةٌ.

يَقُولُ الرَّسُولُ بُولُسُ: «وَأَكْثَرُ الإِخْوَةِ، وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ بِوُثُقِي، يَجْتَرِئُونَ أَكْثَرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ بِلاَ خَوْفٍ.» (فِي١:١١)، وفي موضعٍ آخر يقول: « فَإِنَّكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ صِرْتُمْ مُتَمَثِّلِينَ بِكَنَائِسِ اللهِ الَّتِي هِيَ فِي الْيَهُودِيَّةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، لأَنَّكُمْ تَأَلَّمْتُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا مِنْ أَهْلِ عَشِيرَتِكُمْ تِلْكَ الآلاَمَ عَيْنَهَا، كَمَا هُمْ أَيْضًا مِنَ الْيَهُودِ، الَّذِينَ قَتَلُوا الرَّبَّ يَسُوعَ وَأَنْبِيَاءَهُمْ، وَاضْطَهَدُونَا نَحْنُ. وَهُمْ غَيْرُ مُرْضِينَ للهِ وَأَضْدَادٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ. يَمْنَعُونَنَا عَنْ أَنْ نُكَلِّمَ الأُمَمَ لِكَيْ يَخْلُصُوا» (١تيس ٢:١٤-١٦). وقد كتَبَ لآخرين أيضًا، قائلًا: «وَلكِنْ تَذَكَّرُوا الأَيَّامَ السَّالِفَةَ الَّتِي فِيهَا بَعْدَمَا أُنِرْتُمْ صَبَرْتُمْ عَلَى مُجَاهَدَةِ آلاَمٍ كَثِيرَةٍ... عَالِمِينَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَنَّ لَكُمْ مَالًا أَفْضَلَ فِي السَّمَاوَاتِ وَبَاقِيًا.» (عب ١٠:٣٢-٣٤).

أَرَأَيْتَ هَذِهِ القُوَّةَ العَجِيبَةَ لِذَاكَ الَّذِي حَقَّقَ كُلَّ هَذَا؟

فَلَيْسَ فَقَطْ أَنَّهُمْ لَمْ يَغْضَبُوا أَوْ يَتَضايَقُوا، وَلَيْسَ فَقَطْ أَنَّهُمْ لَمْ يَحْزَنُوا، بَعْدَ أَنْ اجْتَازُوا كُلَّ هَذَا الأَلَمِ، بَلْ إِنَّهُمْ فَرِحُوا وَابْتَهَجُوا إِلَى أَقْصَى الحُدُودِ.

هَذَا مَا قَالَهُ الرَّسُولُ بُولُسُ بِالإِشَارَةِ إِلَى هَذَا الوَضْعِ، أَنَّهُمْ قَبِلُوا سَلْبَ أَمْوَالِهِمْ بِفَرَحٍ.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلمُعَلِّمِينَ (الرُّسُلِ)، فَيَقُولُ القِدِّيسُ لُوقَا فِي سِفْرِ أَعْمَالِ الرُّسُلِ: إِنَّهُمْ خَرَجُوا فَرِحِينَ، لأَنَّهُمْ حُسِبُوا مُسْتَأْهَلِينَ أَنْ يُهَانُوا مِنْ أَجْلِ اسْمِهِ (أع ٥:٤٠-٤٢).

أَيْضًا يَقُولُ بُولُسُ الرَّسُولُ عَنْ نَفْسِهِ: «الَّذِي الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ، وَأُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لأَجْلِ جَسَدِهِ، الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ» (كو ١:٢٤).

لِمَاذَا تَتَحَيَّرُ إِذَنْ، إِنْ كَانَ قَدْ فَرِحَ فِي آلاَمِهِ؟

فَعِنْدَمَا كَانَ يُنْسَكِبُ **(بولس الرسول)**، وَيَسْتَعِدُّ لِلَحْظَةِ المَوْتِ، لَمْ يَكُنْ فَقَطْ فَرِحًا، بَلْ دَعَا تَلَامِيذَهُ أَيْضًا لِيُشَارِكُوهُ هَذَا الفَرَحَ، فِي دَلِيلٍ عَلَى نَفْسٍ مُمْتَلِئَةٍ بِالبَهْجَةِ.

وَهَكَذَا تَكَلَّمَ قَائِلًا: «لَكِنَّنِي وَإِنْ كُنْتُ أَنْسَكِبُ أَيْضًا عَلَى ذَبِيحَةِ إِيمَانِكُمْ وَخِدْمَتِهِ، أُسَرُّ وَأَفْرَحُ مَعَكُمْ أَجْمَعِينَ. وَبِهَذَا عَيْنِهِ كُونُوا أَنْتُمْ مَسْرُورِينَ أَيْضًا وَافْرَحُوا مَعِي» (فِي ٢:١٧-١٨).

أَخْبِرْنِي مَاذَا حَدَثَ حَتَّى تَمْتَلِئَ بِكُلِّ هَذَا الفَرَحِ؟

يَقُولُ: «فَإِنِّي أَنَا الآنَ أُسْكَبُ سَكِيبًا، وَوَقْتُ انْحِلاَلِي قَدْ حَضَرَ» (٢ تيمو ٤:٦).

هَكَذَا هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ قَدْ بَنَوُا الكَنِيسَةَ فِي المَسْكُونَةِ كُلِّهَا، بَيْنَمَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَبْنِيَ وَلَوْ حَائِطًا وَاحِدًا فَقَطْ، مُسْتَخْدِمًا طُوبًا وَأَسْمَنْتًا لِلْبِنَاءِ، إِنْ كَانَ مُطَارَدًا وَمَمْنُوعًا مِنَ البِنَاءِ.

أَمَّا الرُّسُلُ فَقَدْ بَنَوْا كَنَائِسَ كَثِيرَةً جِدًّا فِي أَرْجَاءِ المَسْكُونَةِ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُمْ قُتِلُوا، وَسُجِنُوا، وَاضْطُهِدُوا، وَتَمَّ نَفْيُهُمْ، وَجُلِدُوا، وَفَقَدُوا ثَرْوَاتِهِمْ، وَذُبِحُوا، وَحُرِقُوا، وَطُرِحُوا فِي لُجَّةِ البَحْرِ مَعَ تَلَامِيذِهِمْ.

وَقَدْ بَنَوْا هَذِهِ الكَنَائِسَ لَيْسَ بِحِجَارَةٍ، لَكِنْ بِأَنْفُسٍ وَتَعَالِيمَ، وَهَذَا الأَمْرُ يُعَدُّ أَكْثَرَ صُعُوبَةً مِنَ البِنَاءِ بِالأَحْجَارِ.

لِأَنَّ بِنَاءَ جِدَارٍ بِالأَحْجَارِ لَا يَتَسَاوَى مَعَ النَّجَاحِ فِي تَغْيِيرِ نَفْسٍ كَانَتْ أَسِيرَةً **لِلشَّيَاطِينِ** طِوَالَ هَذِهِ السِّنِينَ، وَأَنْ تَنْتَزِعَهَا مِنْ ذَلِكَ الجُنُونِ الَّذِي كَانَتْ تَحْيَا فِيهِ، ثُمَّ تُعِيدَهَا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى حَالَةِ الهُدُوءِ وَالسَّكِينَةِ وَالتَّعَقُّلِ.

إِلَّا أَنَّ الرُّسُلَ تَمَكَّنُوا مِنْ تَحْقِيقِ كُلِّ ذَلِكَ، وَجَابُوا المَسْكُونَةَ عُرَاةً حُفَاةً، بِمَلَابِسَ مُمَزَّقَةٍ.

لِأَنَّ تِلْكَ القُوَّةَ الَّتِي تَحَدَّثْتُ عَنْهَا كَانَتْ مُعِينًا لَهُمْ: «وَفوق هذِهِ الصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا» (متى ١٦:١٨). فَلْتُحْصِ عَدَدَ المُلُوكِ الَّذِينَ قَامُوا عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَكَمْ عَدَدَ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهَا اضْطِهَادًا مُخِيفًا تَجَاوَزَ كُلَّ الحُدُودِ، وَفِي أَيِّ حَالَةٍ كَانَتِ الأَوْضَاعُ فِي ذَلِكَ العَصْرِ، حِينَ كَانَ الإِيمَانُ جَدِيدًا بَعْدُ، وَنُفُوسُ البَشَرِ رَقِيقَةً وَوَدِيعَةً!.

الملوك الوثنيُّون كانوا كالآتي:

إِنَّ أُغُسْطُسَ، وَتِيبَارِيُوسَ، وَجَايُوسَ، وَنِيرُونَ، وَفَاسْبَاسِيَانُوسَ، وَتِيتُوسَ، وَجَمِيعَ الأَبَاطِرَةِ الَّذِينَ أَتَوْا بَعْدَهُمْ حَتَّى عَصْرِ قُسْطَنْطِينَ الكَبِيرِ، قَدْ حَارَبُوا الكَنِيسَةَ؛ البَعْضُ بِشِدَّةٍ وَقَسْوَةٍ، وَالبَعْضُ بِقَدْرٍ أَقَلَّ، وَلَكِنَّ الجَمِيعَ قَدْ حَارَبُوهَا.

وَإِنْ بَدا البَعْضُ مِنْهُمْ فِي حَالَةِ سُكُونٍ وَهُدُوءٍ، فَإِنَّ مُجَرَّدَ أَنْ يُوصَفَ المَلِكُ بِالجُحُودِ، يَكُونُ ذَلِكَ بِحَدِّ ذَاتِهِ سَبَبًا لِلْحُرُوبِ، لأَنَّ البَعْضَ مِمَّنْ كَانُوا يُنَافِقُونَهُمْ، كَانُوا يَتَسَبَّبُونَ فِي إِثَارَةِ حَرْبٍ ضِدَّ الكَنِيسَةِ، رَاغِبِينَ فِي الحُصُولِ عَلَى رِضَاهُمْ وَعَطْفِهِمْ.

وَلَكِنْ كُلُّ هَذِهِ الفِخَاخِ، وَكُلُّ هَذَا الهُجُومِ، قَدْ تَمَزَّقَ بِطَرِيقَةٍ أَيْسَرَ مِنْ تَمْزِيقِ خُيُوطِ العَنْكَبُوتِ، وَتَبَدَّدَ بِأَسْرَعَ مِنْ تَبَدُّدِ الدُّخَانِ فِي الهَوَاءِ،

وَالغُبَارِ الَّذِي تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ؛ لأَنَّهُمْ مِنْ خِلاَلِ كُلِّ الوَسَائِلِ الَّتِي اسْتَخْدَمُوهَا، أَفْرَزُوا عَدَدًا كَبِيرًا مِنَ الشُّهَدَاءِ، وَسَلَّمُوا تِلْكَ الكُنُوزَ الخَالِدَةَ الَّتِي لِلْكَنِيسَةِ، أَعْمِدَتَهَا وَمَنَارَاتِهَا الحَيَّةَ، الَّذِينَ صَارُوا سَبَبًا لِمَنْفَعَةٍ عَظِيمَةٍ لِلأَجْيَالِ اللاَّحِقَةِ، لَيْسَ فَقَطْ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، بَلْ وَبَعْدَ انْتِقَالِهِمْ أَيْضًا.

أَرَأَيْتَ مَدَى دِقَّةِ النُّبُوءَةِ؟ «وَأَبْوَابُ الْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا». وَهَكَذَا، مِنْ خِلاَلِ كُلِّ هَذَا، يَنْبَغِي أَنْ تُؤْمِنَ بِحَيَاةِ الدَّهْرِ الآتِي، وَأَنْتَ تَرَى أَنَّهُ لاَ أَحَدَ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ اضْطَهَدُوهَا قَدْ بَقِيَ.

رَغْمَ أَنَّ الكَنِيسَةَ آنَذَاكَ كَانَتْ تَتَكَوَّنُ مِنْ عَدَدٍ قَلِيلٍ، وَمَعَ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ بَدَا شَيْئًا جَدِيدًا، وَالتَّعْلِيمَ كَانَ جَدِيدًا، عِنْدَمَا شُنَّتِ الحُرُوبُ وَالمَعَارِكُ مِنْ حَوْلِهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتَغَلَّبُوا عَلَيْهَا، وَلَمْ يَسُودُوا عَلَيْهَا.

بَلْ بِالعَكْسِ، قَدْ سَادَتْ هِيَ عَلَى المَسْكُونَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ: فِي الجِبَالِ وَالمُنْحَدَرَاتِ وَالمُرْتَفَعَاتِ، بَلْ وَفِي البِحَارِ، وَعَلَى كُلِّ الأُمَمِ الَّتِي تَحْتَ الشَّمْسِ؛ فِي حِينَ أَنَّ الجُحُودَ أَوْ عَدَمَ التَّقْوَى قَدْ بَقِيَ فَقَطْ فِي مَعَابِدَ وَمَذَابِحَ وَثَنِيَّةٍ قَلِيلَةٍ، بَلْ وَقَدْ أُبْطِلَتِ احْتِفَالاَتٌ وَمُمَارَسَاتٌ وَأَبْجَرَةٌ وَمَحَافِلُ دَنِسَةٌ.

إِذًا، كَيْفَ لِهَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ وَالمُدْهِشِ، وَرَغْمَ كُلِّ هَذِهِ العَوَائِقِ، أَنْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ، وَإِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ الهَامَّةِ الَّتِي كَشَفَتِ الحَقِيقَةَ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَحْمُولًا بِقُوَّةٍ إِلَهِيَّةٍ لاَ تُقْهَرُ، وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ قَدْ تَنَبَّأَ عَنْهَا السَّيِّدُ المَسِيحُ لَهُ المَجْدُ وَتَحَقَّقَتْ؟

لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكِرَ هَذِهِ الحَقِيقَةَ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَجْنُونًا لِلْغَايَةِ، وَغَيْرَ مُتَّزِنٍ، وَبِلاَ عَقْلٍ تَمَامًا. وَلَيْسَتِ النُّبُوءَاتُ هَذِهِ فَقَطْ، بَلْ نُبُوءَاتٌ أُخْرَى أَيْضًا قَدْ أَعْلَنَتْ عَنْ قُوَّتِهِ الَّتِي لاَ تُقْهَرُ.

بِالطَّبْعِ، هُوَ تَنَبَّأَ بِأُمُورِ الدَّهْرِ الآتِي بِدِقَّةٍ كَبِيرَةٍ، وَهَذَا قَدْ تَحَقَّقَ، وَمِنَ المُسْتَحِيلِ أَلَّا يَتَحَقَّقَ شَيْءٌ مِمَّا قَالَهُ؛ لأَنَّهُ مِنَ السَّهْلِ أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ، عَلَى أَنْ يَزُولَ بَعْضٌ مِنْ كَلِمَاتِهِ، أَوْ يَعْتَرِيَ نُبُوءَاتِهِ أَيُّ كَذِبٍ.

لأَنَّهُ هُوَ ذَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ تَتَحَقَّقَ النُّبُوءَاتُ بَعْدُ، أَعْلَنَ هَذَا تَحْدِيدًا، وَهَكَذَا تَكَلَّمَ بِوُضُوحٍ عَنْ نُبُوءَاتِهِ قَائِلًا:

«اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ.» (مت٢٤: ٣٥).

وَهَذَا صَائِبٌ جِدًّا، لأَنَّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ لَيْسَتْ كَلِمَاتٍ عَارِضَةً، بَلْ هِيَ كَلِمَاتُ اللهِ، الَّتِي خَلَقَتْ كُلَّ الأَشْيَاءِ؛ إِذْ إِنَّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، وَالبَحْرَ، وَالشَّمْسَ، وَجُمُوعَ المَلاَئِكَةِ، وَكُلَّ القُوَّاتِ غَيْرِ المَرْئِيَّةِ، قَدْ خُلِقَتْ بِكَلِمَتِهِ.

وَهَذَا مَا أَوْضَحَهُ النَّبِيُّ بِجَلاءٍ قَائِلًا: «لأنه هو قال فكانت وهو أمر فخُلِقَت. أقامها إلى الأبد وإلى أبد الأبد، ووضع لها أمرًا فلن تتجاوزه» (مز ١٤٨: ٥-٦). وَهُوَ يَعْنِي بِذَلِكَ كُلَّ الخَلِيقَةِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ وَالَّتِي عَلَى الأَرْضِ، المَادِّيَّةَ وَالرُّوحِيَّةَ، الجَسَدَانِيَّةَ وَغَيْرَ الجَسَدَانِيَّةِ.

أَمَّا النُّبُوءَةُ الَّتِي سَبَقَتْ وَأَخْبَرَتْ بِتَأْسِيسِ الكَنِيسَةِ، فَقَدْ أَظْهَرَتْ -كَمَا سَبَقْتُ وَقُلْتُ - عِظَمَ وَمِقْدَارَ وَسُمُوَّ حَقِيقَتِهِ، وَعِنَايَتَهُ، وَإِحْسَانَهُ، وَاهْتِمَامَهُ.

لِنَسْتَعِنْ، أَوْ نَسْتَرْشِدْ، بِنُبُوءَةٍ أُخْرَى أَكْثَرَ إِشْرَاقًا مِنْ نُورِ الشَّمْسِ، وَأَكْثَرَ وُضُوحًا مِنَ الأَشِعَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ أَمَامَ أَعْيُنِنَا جَمِيعًا، وَسَارِيَةٌ لِكُلِّ الأَجْيَالِ اللاَّحِقَةِ.

تَمَامًا كَمَا فِي النُّبُوءَةِ السَّابِقَةِ، هَكَذَا هِيَ كُلُّ نُبُوءَاتِهِ؛ لَا تَنْتَهِي فِي فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ قَصِيرَةٍ، وَلَا تَتَحَقَّقُ فِي جِيلٍ وَاحِدٍ، بَلْ فِي كُلِّ عَصْرٍ تَتَحَقَّقُ فِيمَنْ هُمْ مَوْجُودُونَ الآنَ، وَفِي اللاَّحِقِينَ أَيْضًا، وَحَتَّى آخِرِ الدُّهُورِ، لِيَحِقَّ لَهُمْ أَنْ يَعْرِفُوا قُوَّةَ الحَقِيقَةِ، تَمَامًا كَمَا عَرَفَهَا السَّابِقُونَ.

فَمُنْذُ اليَوْمِ الَّذِي تَأَسَّسَتْ فِيهِ الكَنِيسَةُ، وَحَتَّى نِهَايَةِ العَالَمِ، تَقِفُ رَاسِخَةً، مُزْدَهِرَةً، وَمُشْرِقَةً؛ تَنْمُو كُلَّ يَوْمٍ وَتَكْبَرُ، مَانِحَةً قُوَّةً كَبِيرَةً، وَمُعْطِيَةً لِكُلِّ مَنْ سَيُوجَدُ فِي هَذَا العَالَمِ، وَحَتَّى مَجِيءِ المَسِيحِ الثَّانِي، أَنْ يَنَالَ الثَّمَرَ مِنْ هَذِهِ الخَيْرَاتِ الكَثِيرَةِ وَالعَظِيمَةِ، وَيَتَمَتَّعَ بِفَائِدَةٍ لاَ تُوصَفُ.

وَبِالتَّأْكِيدِ، فَإِنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَنَا، وَالَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ أَيْضًا، قَدْ أَدْرَكُوا قُوَّتَهَا، إِذْ رَأَوْا مِنْ نَاحِيَةٍ كَثِيرِينَ قَدْ حَارَبُوهَا، وَأَنَّ الأَخْطَارَ وَالاضْطِرَابَاتِ وَالقَلاَقِلَ وَالأَمْوَاجَ العَاتِيَةَ وَالكَوَارِثَ قَدْ أَحَاطَتْ بِهَا؛ وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى شَهِدُوا أَنَّهَا لَمْ تَغْرَقْ، وَلَمْ تُقْهَرْ، وَلَمْ تَخْضَعْ، وَلَمْ تُمْحَ أَوْ تَزُلْ، بَلِ ازْدَهَرَتْ وَعَظُمَتْ، وَوَقَفَتْ شَامِخَةً فِي سُمُوٍّ عَظِيمٍ.

---

(١) (الرؤساء والولاة) هم أعلى الرتب في روما القديمة في الحقبة الجمهورية، من عام ٥٠٩ إلى ٢٩ قبل الميلاد، وكانت مدة حكمهم سنة واحدة، وكانوا يقتسمون السلطة فيما بينهم.

يتبع

العلاقة المسيحيَّة الصحيحة بين الزوجين (بيت مسيحي بامتياز)

البيت المسيحيّ يقوم على المحبَّة المتبادلة التي **تُشبه محبَّة المسيح للكنيسة** (أفسس ٥: ٢٥). فالزواج ليس مجرَّد ارتباط بشري، بل هو سرٌّ مقدَّس، فيه يُصبح الزوجان «جسدًا واحدًا» في المسيح (متَّى ١٩: ٦).

يجب أن يكون **المسيح** مركز الحياة الزوجيَّة، بحيث يُقدِّس كلٌّ من الزوج والزوجة الآخر بالمحبَّة، والاحتمال، والصلاة المشتركة. فالزوج مدعوٌّ إلى قيادة البيت بروح التضحية، والزوجة إلى الاحترام والطاعة في المحبَّة، وفقًا للوصيَّة الإلهيَّة (أفسس ٥: ٢٢-٣٣).

كما أنَّ البيت المسيحي يجب أنْ يكون مَبنيًّا على الإيمان والنعمة، حيث يسود السلام والغفران، وتُحَلُّ المشكلات بروح التواضع، لا بروح الغلبة والانتصار. فالمحبَّة المسيحيَّة لا تطلب ما لنفسها، بل تحتمل وتصبر وتغفر (١ كورنثوس ١٣: ٤-٧).

وأخيرًا، على الزوجين أن يُحافظا على **الصلاة والتناول من الأسرار المقدَّسة**، ليثبت **المسيح** في بيتهما، فيكون بيتهما «**كنيسة صغيرة**»، تعكس **نور الملكوت**.

تُرجم هذا المقال من اليونانيَّة الى العربيَّة، من موقع:

https://www.pemptousia.gr/2015/05/lytr2/

ΟΡΘΟΔΟΞΙΑ ΠΟΛΙΤΙΣΜΟΣ ΕΠΙΣΤΗΜΕΣ
ΠΕΜΠΤΟΥΣΙΑ

دراسة الباحث اللغويّ هيراكليس بسالتيس حول قضايا الخطيئة والفداء في أعمال **جيورجيوس فيزينيونوس**، من منظور اللاهوت الأرثوذكسيّ، تعرض النقاط المركزيّة لمخطّط التدبير الإلهيّ لخلاص الإنسان.

١) كشف مخطّط وتدبير الله للخلاص:

إنّ مخطّط أو تدبير الله لخلاص الإنسان والعالم، الذي كان مُعدًّا منذ زمن العهد القديم، قد تجلّى في الخليقة من خلال تجسّد **الابن وكلمة الله**. عندما جاء «ملء الزمان»، تمّ إعلان ملكوت الله بواسطة حياة المسيح، وآلامه، وقيامته. يستمرّ هذا الملكوت من خلال تأسيس الكنيسة، ممتدًّا عبر العصور حتّى اكتماله في **المجيء الثاني المَجيد للمسيح**.

هكذا، تبدو **قصة الخلاص** — وهي جوهر التعليم الرسوليّ في العهد الجديد — وكأنّها تسير في **اتّجاهين متكاملين**:

الأوّل: يسير من الجماعة نحو الواحد، وهو ما يمثّله العهد القديم.

الثاني: يسير من الواحد إلى الجماعة، وهو ما يمثّله العهد الجديد.

وفي قلب هذا التدبير، نجد **العمل الكفّاريّ الذي تحقّق بآلام المسيح وقيامته**. فالكنيسة على الأرض، والتي هي **جسد المسيح**، تلعب دورًا مركزيًّا في فداء البشريّة جمعاء، بل والخليقة كلّها.

٢) التجسّد: القمّة في علاقة الله بالخليقة

إنّ الحدث الأسمى في العلاقة بين الله والخليقة هو **التجسّد الإلهيّ**، حيث نزل الكلمة الأزليّ وأخذ جسدًا بشريًّا. في هذا الحدث العظيم، بلغ تنازل الله نحو الإنسان ذروته، إذ ارتضى أن يتّحد بطبيعتنا من أجل خلاصها.

التجسّد الإلهيّ هو الحدث الذي غيّر تاريخ العلاقة بين البشرية والله، لأنّه:

† جعل **يسوع المسيح يتّحد بالخليقة**، فيأخذها كجسده ويقودها نحو **الخلاص النهائيّ**.

† جعل الخليقة **تتجاوز الفساد والموت**، وتتّحد بالحياة الإلهيّة.

† أتاح للإنسان **المشاركة في النعمة الإلهيَّة المحيية**.

إذًا، **لم يكن المسيح مجرّد مُصلحٍ أو مؤسّسٍ لمرحلة جديدة في تاريخ البشرية، بل كان هو نفسه «ملكوت السماوات» المُتحقّق في شخصه**.

٣) طبيعة الخلاص: تجديد الإنسان كيانيًّا وليس مجرّد غفران:

في اللاهوت الأرثوذكسيّ، لا يُفهم الخلاص على أنّه مجرّد **مغفرة للخطايا بطريقة قانونيَّة** كما تراه اللاهوتيّات الغربيّة، بل هو **تجديدٌ وجوديٌّ للإنسان**، يتمّ من خلال **الأسرار المقدّسة**.

أقام المسيح الأسرار الكنسيّة كأدوات للخلاص، وأهمّها:

سرّ المعموديّة: حيث يولد الإنسان ولادةً جديدة.

سرّ الإفخارستيّا: حيث يتّحد الإنسان بالمسيح القائم من بين الأموات.

وبالتالي، **فإنّ الظهورات الإلهيَّة في التاريخ لم تكن مجرَّد إعلاناتٍ ميتافيزيقيّة، بل كانت تهدف إلى كشف الحقيقة للإنسان وإضاءة طبيعة الوجود الإنسانيّ نفسه**.

لكنّ الأمر الأهمّ هو أنّ **المسيح، الكلمة الأزليّ، بتجسّده، أظهر للبشر سبب وجودهم، ودعوتهم الحقيقيَّة**. فهو لم يأتِ فقط ليخلّص الإنسان، بل ليكشف له عن **معناه وقيمته** في مخطّط الله الأبديّ.

٤) الكنيسة كحاملة للخلاص

تُعتبر الكنيسة، كونها جسد المسيح، **الوسيط الأساسيّ للخلاص**، إذ تعيش فيها النعمة الإلهيّة وتتحقّق فيها الأسرار. فكما **قال القدّيس كبريانوس أسقف قرطاجنة (٢٠٠–٢٥٨ م)**: «**خارج الكنيسة، لا يوجد خلاص**» «***Extra ecclesiam nulla salus***» وهو تأكيد على أنّ الكنيسة ليست مجرّد جماعة دينيّة، بل هي **الامتداد الحيّ لحضور المسيح على الأرض، والوسيلة التي من خلالها ينال الإنسان المشاركة في الحياة الإلهيَّة والخلاص الأبديّ**.

خاتمة: يُظهر هذا المقال كيف أنّ التدبير الإلهيّ للخلاص هو مخطّط إلهيّ متكامل، بدأ منذ العهد القديم، وتجسّد في **شخص المسيح**، وهو مستمرّ عبر الكنيسة حتى اكتماله في المجد. التجسّد لم يكن حدثًا عابرًا، بل هو مركز تاريخ الخلاص، حيث **صار المسيح «رأس الخليقة الجديدة»**، مانحًا الإنسان فرصة العيش في الشركة مع الله. له المجد إلى الأبد، آمين. **(جمعية نور المسيح)**

دور العذراء في سرِّ التدبير الإلهي باعتبارها حوّاء الجديدة

أيّها الأحبّاء في المسيح، نجتمع اليوم لنتأمّل في **شخص والدة الإله القدّيسة مريم**، ودورها المحوريّ في مخطّط الله الخلاصيّ من أجلنا، باعتبارها حوّاء الجديدة، تلك التي دخلت في سرِّ التدبير الإلهي من خلال تجاوبها الكامل مع إرادة الله.

١) حوّاء الأولى وحوّاء الجديدة

في قراءتنا لأسفار الكتاب المقدّس، نجد أنّه كما كانت **حوّاء الأولى** طريقًا لدخول الخطيئة إلى العالم **بشخصها هي وآدم**، هكذا صارت **العذراء مريم** طريقًا لدخول الخلاص إلى العالم، **بولادة الرَّبّ يسوع المسيح الإله** المتجسّد.

حوّاء الأولى: خُلقت في الفردوس لتكون شريكة آدم، لكنها **سقطت** في تجربة العصيان. إنَّ فعل العصيان هذا أدَّى إلى دخول الموت إلى العالم وابتعاد (انفصال) البشرية عن الله.

حوّاء الجديدة: تجاوبت مع إرادة الله بقولها: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ» (لوقا١: ٣٨). بهذا الطّاعة الكاملة، مهَّدت **القدّيسة مريم** طريق التجسّد الإلهيّ والفداء.

إنّ لقب «**حوّاء الجديدة**» ليس مجرّد استعارة أدبيّة، بل هو تعبيرٌ لاهوتيّ عميق يؤكّد دور **مريم** المحوريّ في التدبير الإلهيّ، إذ طاعتها العميقة عالجت وعكسَت **سقوط حوّاء الأولى**.

٢) التدبير الإلهيّ وتجسّد الكلمة

في التقليد الروميّ الأرثوذكسيّ، نؤمن بأنّ التدبير الإلهي هو الخطّة الإلهيّة لخلاص الإنسان من الخطيئة والموت. وهذا التدبير تحقق في ملء الزمان **بتجسّد ابن الله الوحيد من مريم العذراء بالرُّوح القُدُس**.

نعمة الاختيار: إنَّ **مريم** اختارها الله منذ الأزل لتكون «ممتلئة نعمة» (لوقا١: ٢٨)، فمهّدت **عروس الرُّوح القُدُس** الطريقَ لمجيء **الرّبّ يسوع المسيح**، واضعةً ذاتها في خدمة الخلاص.

الطاعة مقابل العصيان: كما عصت حوّاء وصيّة الرّبّ فدخل الموت، كذلك أطاعت **مريم** قول الملاك حاملةً في أحشائها «واهب الحياة»، فدخلت الحياة الأبديّة إلى عالمنا.

يدعونا هذا السرّ العظيم إلى التأمّل بمحبّة الله الفائقة، الذي شاء أن يتّخذ منّا بشرًا، فتجسّد ابنُه القدُّوس ليخلِّص الإنسان من الخطايا. ودور **مريم** أساسيٌّ في ذلك، إذ اختارت أن تكون إناءً مقدّسًا لله، فاتّحدت إرادتها بإرادة الثالوث القدّوس.

٣) والدة الإله (Θεοτόκος) في حياة الكنيسة

تُعبِّر الكنيسة الروميَّة الأرثوذكسيَّة عن إكرام خاص للعذراء، داعيةً إيّاها «**والدة الإله**» (*Θεοτόκος*)، وهو اللقب الذي ثبَّته **المجمع المسكوني الثالث** (أفسس ٤٣١م). هذا اللقب يعلّمنا بأنّ المولود منها هو الإله المتجسّد، إذ أخذ منها طبيعتنا البشريَّة اتّحادًا حقيقيًّا بلا اختلاطٍ أو امتزاجٍ أو تغيير في ألوهيّته.

للقديسة العذراء مريم رموز كثيرة في الكنيسة الأرثوذكسيَّة، ومنها:

باب السماء: نرتِّل **لمريم** في كنائسنا الأرثوذكسيّة على أنّها «باب السماء» و«سُلّم يعقوب» الجديد الذي من خلاله انحدر الله إلينا وصعدنا نحن إليه.

أرفع مجدًا من الشيروبيم: نكرِّم والدة الإله باعتبارها أقدس الخلائق، لأنّها حملت في أحشائها الإله المتجسّد، وهي «أكرمُ من الشيروبيم وأرفعُ مجدًا بغيرِ قياسٍ من السارافيم.»

إنّ هذا التكريم الذي نقدّمه للعذراء يوجّه عيوننا نحو المسيح، لأنّ مريم والدة الإله تشير دائمًا إلى ابنها الإلهي: «مهما قال لكم فافعلوه» (يوحنا ٢: ٥).

٤) مريم مثالٌ للطاعة والمحبّة

إنّنا نرى في العذراء مريم **صورةً ومثالًا** للطاعة الفعّالة. ليست طاعةً سلبيّة، بل قبولًا واعيًا وخضوعًا بالحبّ والثقة لمشيئة الله. عندما يُعلِن

الملاك البُشرى بميلاد المخلّص، لم تتردّد مريم كثيرًا أمام سرّ يفوق الإدراك، بل سلّمت ذاتها بكامل قلبها. وهكذا:

التواضع: تخضّعت لمشيئة الله بقولها «أنا أَمَةُ الرَّبِّ»، معلنةً ثقتها المطلقة في خطّته.

الشركة مع الرُّوح القُدُس: تحقّق سرّ التجسّد بتدخّل الرّوح القدس. وبهذا تكشف لنا مريم أنّه لا خلاص إلّا بفعل النعمة الإلهيَّة فينا.

الخدمة: بعد البشارة، سارعت مريم إلى خدمة أليصابات (لوقا ١: ٣٩). فقبولها للنعمة لم ينعزل عن محبّة الآخرين وخدمتهم.

٥) دعوة لنا لنكون شركاء في التدبير الإلهيّ

أيّها الأحبّاء، إنّ مريم العذراء باعتبارها حوّاء الجديدة لا تجرُّنا إلى عبادة شخصها، بل إلى الدخول في علاقة حيّة مع ابنها الإله. لقد اختبرَت في أحشائها سرّ التجسّد، وهي اليوم تدعونا لنكون نحن أيضًا شركاء في هذا السرّ بقبول المسيح في قلوبنا وإعلان الطاعة اليوميَّة لكلمته.

التوبة المستمرّة: كما أنّ حوّاء الأولى خضعت للتجربة وسقطت، نحن أيضًا معرَّضون للسقوط في الخطيئة. ولكنّ مريم تدعونا إلى الاستمرار في درب التوبة والعودة الدائمة إلى الله، من خلال تقديم «نَعَم» جديدة كلّ يوم. هذه الـ «نعم» تعني تجديد التزامنا وخضوعنا لمشيئة الله في تفاصيل حياتنا اليوميَّة، رفضًا للتراخي أو الاستسلام للخطيئة، وسعيًا إلى الثبات في محبّته ورحمته.

العطاء والانفتاح: لنا أن نكون «هياكل للرُّوح القُدُس» على مثال مريم (راجع ١ كورنثوس ٦: ١٩)، فنحمل المسيح إلى عالم يحتاج بشدّة إلى محبّته ونوره.

الفرح بالخلاص: ترنّم مريم في نشيد التعظيم (لوقا ١: ٤٦-٥٥) فرحًا بتدخّل الله المخلِّص، ويجب أن يحفّزنا هذا الفرح على إعلان البشارة والخلاص لكلّ الذين حولنا.

أيُّها الأحبّاء، إنّ مريم العذراء هي حوّاء الجديدة، فكما دخلت الخطيئة إلى العالم بواسطة **حوّاء الأولى**، كذلك دخل الخلاص إلينا عبر مريم المباركة، التي بطاعتها وإيمانها حملت في أحشائها بذار الحياة الأبديّة، المسيح الإله المتجسّد من أجل خلاصنا. إنّ الكنيسة الأرثوذكسيّة تكرّمها لا كإلهة، بل كوالدة الإله، التي وهبت ذاتها بالكامل لمشيئة الله، فأصبحت الوسيطة التي من خلالها دخل الخلاص إلى العالم.

٦) عيد البشارة ومسيرة الصوم نحو الفصح المجيد

وبينما نسير في هذه الأيام المباركة، في **زمن الصوم الكبير**، في رحلتنا الروحيَّة نحو **الفصح المجيد**، نحتفل بعيد البشارة، الذي يُعَدّ بدء التدبير الإلهي الظاهر في جسد ابن الله. فالبشارة ليست مجرّد حدثٍ منفصل، بل هي أوّل إشراقةٍ للفداء، حيث دخل المسيح إلى عالمنا متجسّدًا من أجل خلاصنا. وهكذا، تلتقي **البشارة والفصح** في تدبير الله الواحد:

١) من البشارة إلى الصليب فالقيامة: إنّ «نَعَم» العذراء في يوم البشارة فتحت طريق التجسّد، وهي الطريق عينها التي سار فيها الربُّ يسوع نحو الجلجلة ليقدّم ذاته ذبيحة حبٍّ عنا، ويُقيمنا معه في صباح القيامة.

٢) إيمان العذراء وطاعتها نموذجٌ لنا في صيامنا: فقد صامت العذراء عن كلّ شكٍّ أو تردّد، قائلةً: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ» (لوقا١: ٣٨)، ونحن في هذا الزمن المقدّس مدعوّون لنتشبّه بها، فنفرغ قلوبنا من كلّ ما يمنعنا من قبول مشيئة الله.

٣) من حوّاء الجديدة إلى أمّ المتألّم: عاشت مريم حدث الصليب بقلب الأمّ، واقفةً عند أقدام ابنها المصلوب، في استسلامٍ تامٍّ لإرادة الآب. وهكذا هي تُعلّمنا أنّ **درب الآلام** يفترش الطريق **لمجد القيامة**، لأنّ آلام المسيح لم تكن نهايةً بل بدايةً لميلادٍ جديدٍ في فجر الفصح.

٤) بشارةٌ بالفرح الكامل: ما بدأ في البشارة من «بُشرى خلاص» تُعلِن الملائكة إتمامه يوم الفصح بأبهى صورة، إذ يتردّد صَدَى «المسيح قام» في المسكونة كلها. فمريم التي حملت في أحشائها «الطريق والحق والحياة»، صارت شاهدةً على انتصار المسيح **على الموت**.

خاتمة

فلنتّخذ من حوّاء الجديدة، والدة الإله القدّيسة مريم، مثالًا وشفاعةً في هذه الأيام المقدّسة. ففي البشارة تُعلِن بدء (رأس) خلاصنا، وفي الفصح نعاين **تمامه بقيامة الرّبّ يسوع منتصرًا على الموت**. فلنستعد روحيًّا وجسديًّا بنعمة الصوم والصلاة والتوبة، حتّى نعيش فرح القيامة وننشد مع الكنيسة كلّها: «المسيح قام من بين الأموات، ووطئ الموت بالموت، ووهب الحياة للذين في القبور». آمين.

(جمعية نور المسيح)

فضيلة الإحتمال

(من أقوال نُسَّاك البريَّة)

الاِحْتِمَالُ هُوَ تَاجُ الصَّابِرِينَ وَسِلَاحُ الْأَقْوِيَاءِ فِي الرُّوحِ. هُوَ الِامْتِحَانُ الْحَقِيقِيُّ لِلْمَحَبَّةِ، حَيْثُ يُظْهِرُ الْإِنْسَانُ عُمْقَ إِيمَانِهِ مِنْ خِلَالِ تَحَمُّلِ الْآلَامِ وَالتَّجَارِبِ بِرُوحِ الِاتِّكَالِ عَلَى اللهِ. فَالَّذِي يَحْتَمِلُ بِفَرَحٍ، يَشْتَرِكُ فِي آلَامِ الْمَسِيحِ، وَيَتَشَبَّهُ بِصَبْرِهِ عَلَى الصَّلِيبِ.

لَيْسَ الِاحْتِمَالُ ضُعْفًا، بَلْ هُوَ قُوَّةٌ دَاخِلِيَّةٌ تُطَهِّرُ النَّفْسَ مِنَ الْأَنَانِيَّةِ، وَتُهَذِّبُ الْإِرَادَةَ، وَتُثَبِّتُ الْإِنْسَانَ فِي طَرِيقِ الْقَدَاسَةِ. فَالْمَسِيحُ نَفْسُهُ احْتَمَلَ الظُّلْمَ وَالْإِهَانَاتِ دُونَ أَنْ يَرُدَّ الْإِسَاءَةَ بِالْإِسَاءَةِ، بَلْ غَلَبَ بِالْحُبِّ وَالصَّمْتِ وَالتَّسْلِيمِ.

الْمُحْتَمِلُ يَرْبَحُ نَفْسَهُ، وَيَكْسِبُ رِضَا اللهِ، لِأَنَّ «الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ.» (مَتَّى ٢٤: ١٣)

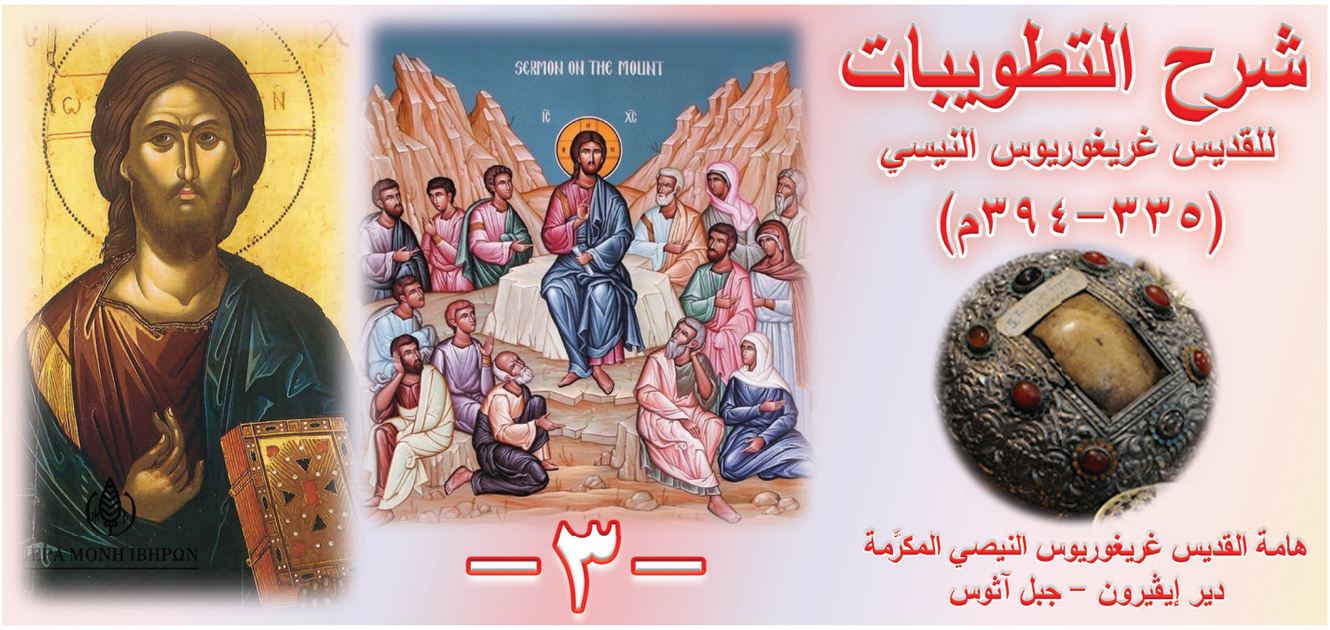

† «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ.» (مت ٥: ٤) (١):

لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إِلَى قِمَّةِ الجَبَلِ، وَلَكِنَّ أَذْهَانَنَا مَا زَالَتْ فِي سَفْحِهِ. وَرَغْمَ أَنَّنَا مَرَرْنَا عَلَى تَلَّيْنِ (المُثَنَّى مِنْ كَلِمَةِ «تَلّ»)؛ إِذِ اقْتَادَتْنَا التَّطْوِيبَاتُ إِلَى المَسْكَنَةِ المُطَوَّبَةِ، وَإِلَى الوَدَاعَةِ الَّتِي تَسْمُو عَلَيْهَا، فَإِنَّ «الكَلِمَةَ» (أَيْ: «كَلِمَةُ اللهِ المُتَجَسِّدُ») يَقُودُنَا الآنَ إِلَى أُمُورٍ أَسْمَى.

وَبِتَسَلْسُلٍ مُنَسَّقٍ، يُرِينَا السُّمُوَّ الثَّالِثَ، وَإِلَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ المَرْءُ أَنْ يَصْعَدَ إِلَّا، كَمَا يَقُولُ الرَّسُولُ بُولُسُ: «لِنَطْرَحْ كُلَّ ثِقْلٍ، وَالخَطِيَّةَ المُحِيطَةَ بِنَا» (عِبْرَانِيِّينَ ١٢: ١). وَإِذَا بَلَغْنَا بِذَلِكَ إِلَى القِمَّةِ بِخِفَّةٍ وَدُونَ ثِقْلٍ، فَإِنَّ نُفُوسَنَا سَوْفَ تَقْتَرِبُ مِنَ الحَقِّ بِضِيَاءٍ أَنْقَى.

فَمَاذَا يَعْنِي هَذَا القَوْلُ: «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ»؟ فَإِذَا نَظَرَ الإِنْسَانُ إِلَى هَذَا القَوْلِ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِ العَالَمِ، فَسَيَقُولُ بِالتَّأْكِيدِ إِنَّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ غَيْرُ مَنْطِقِيَّةٍ، وَيُحَاجِجُ قَائِلًا: «**إِذَا اعْتَبَرَ المَرْءُ أَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَضَوْا حَيَاتَهُمْ مُتَحَمِّلِينَ كُلَّ نَوْعٍ مِنَ المِحَنِ مُطَوَّبِينَ، فَوَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ بِدُونِ حُزْنٍ أَوْ هَمٍّ يَكُونُونَ بَائِسِينَ.**»

وَحِينَئِذٍ سَيُحْصِي أَنْوَاعَ النَّكَبَاتِ العَدِيدَةَ، وَفَضْلًا عَنْ ذَلِكَ، يُضْحِكُ سَامِعِيهِ مِنْ خِلَالِ وَصْفٍ وَاضِحٍ لِنَكَبَاتِ التَّرَمُّلِ وَحَالَةِ اليُتْمِ المُحْزِنَةِ. وَسَيَذْكُرُ الخَسَائِرَ المَالِيَّةَ، وَغَرَقَ السُّفُنِ، وَمَصِيرَ أَسْرَى الحَرْبِ، وَالأَحْكَامَ الظَّالِمَةَ فِي المَحَاكِمِ، وَالنَّفْيَ وَمُصَادَرَةَ المُمْتَلَكَاتِ، وَإِضَاعَةَ الإِنْسَانِ لِشَرَفِهِ. وَسَيُضِيفُ إِلَى النَّكَبَاتِ النَّاتِجَةِ عَنِ المَرَضِ مِثْلَ العَمَى وَتَشَوُّهِ الجَسَدِ، وَكُلِّ نَوْعٍ مِنَ العِلَلِ الجَسَدِيَّةِ. وَبِاخْتِصَارٍ، سَيُبْرِزُ تَفَاصِيلَ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ المُعَانَاةِ، سَوَاءً فِي الجَسَدِ أَوْ فِي النَّفْسِ، الَّتِي تُلِمُّ بِالبَشَرِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ. وَبِذَلِكَ، فَسَيَرَى أَنَّ تَطْوِيبَ الحَزَانَى يَبْدُو غَيْرَ مَنْطِقِيٍّ.

وَمَعَ ذَلِكَ، لَا نُلْقِي كَبِيرَ اهْتِمَامٍ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَرَوْنَ الأَفْكَارَ الإِلَهِيَّةَ حَقِيرَةً وَخَالِيَةً مِنَ القِيمَةِ، وَيَسْعَوْنَ - قَدْرَ الإِمْكَانِ - إِلَى فَحْصِ الكُنُوزِ الكَامِنَةِ فِي أَعْمَاقِ هَذَا القَوْلِ. وَلَعَلَّهُ يَتَّضِحُ كَمْ يَخْتَلِفُ الذِّهْنُ المُنْصَرِفُ إِلَى الأُمُورِ السَّمَاوِيَّةِ السَّامِيَةِ، عَنِ الذِّهْنِ الجَسَدِيِّ الَّذِي يَتَشَبَّثُ بِالأَرْضِ.

الحُزْنُ الَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ:

يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ فِي المَقَامِ الأَوَّلِ أَنْ يَعْتَبِرَ الحُزْنَ النَّاتِجَ عَنْ تَعَدِّيَاتِ الخُطَاةِ مُبَارَكًا، وَفْقًا لِتَعْلِيمِ القِدِّيسِ بُولُسَ عَنِ الحُزْنِ، إِذْ يَقُولُ: «لأَنَّ الحُزْنَ الَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلاَصٍ بِلاَ نَدَامَةٍ، وَأَمَّا حُزْنُ العَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتًا» (٢ كُورِنْثُوس ٧: ١٠).

فَبِالتَّأْكِيدِ، لَا يُمْكِنُ اسْتِبْعَادُ هَذِهِ المُعَانَاةِ مِنَ الحُزْنِ المُطَوَّبِ. فَإِنْ أُصِيبَ جُزْءٌ مِنَ الجَسَدِ بِالشَّلَلِ نَتِيجَةَ حَادِثٍ مَا، فَإِنَّ فُقْدَانَ الإِحْسَاسِ فِي ذَلِكَ العُضْوِ يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى مَوْتِهِ. وَإِذَا أَعَادَتِ المَهَارَةُ الطِّبِّيَّةُ لِلْجَسَدِ الإِحْسَاسَ بِالحَيَاةِ، يَفْرَحُ المَرِيضُ وَالأَطِبَّاءُ عِنْدَمَا يَسْتَعِيدُ العُضْوُ المَرِيضُ الإِحْسَاسَ بِالأَلَمِ، لِأَنَّ إِحْسَاسَ العُضْوِ بِالأَلَمِ دَلِيلٌ عَلَى تَعَافِيهِ مِنْ أَزْمَتِهِ.

وَهَكَذَا، كَمَا يَقُولُ الرَّسُولُ، إِذَا انْغَمَسَ النَّاسُ فِي حَيَاةِ الخَطِيَّةِ وَفَقَدُوا الإِحْسَاسَ بِالأَلَمِ، فَإِنَّهُمْ يُصْبِحُونَ فِعْلًا مَشْلُولِينَ وَأَمْوَاتًا عَنِ الفَضِيلَةِ، إِذْ لَا يَكُونُ لَهُمْ إِدْرَاكٌ لِمَا يَفْعَلُونَ.

وَلَكِنَّ ثَمَّةَ كَلِمَةً شَافِيَةً يُمْكِنُ أَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهَا، كَمَا يَتَمَسَّكُ المَرْءُ بِالدَّوَاءِ المُرِّ المُوجِعِ. إِنَّنِي أَتَكَلَّمُ عَنِ التَّهْدِيدَاتِ العَنِيفَةِ لِلدَّيْنُونَةِ الآتِيَةِ، الَّتِي تَخْتَرِقُ أَعْمَاقَ القَلْبِ بِالخَوْفِ، لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِأُمُورٍ لَا بُدَّ مِنْ تَوَقُّعِهَا.

إِنَّهَا تُنَبِّئُهُمْ بِأَهْوَالِ جَهَنَّمَ، وَبِنَارٍ لَا تَنْطَفِئُ، وَبِدُودٍ لَا يَمُوتُ، وَبِصَرِيرِ الأَسْنَانِ، وَبِالبُكَاءِ الدَّائِمِ، وَبِظُلْمَةٍ خَارِجِيَّةٍ (أُنْظُرْ مَتَّى ٨: ١٢). «لِيَرْجِعِ الْخَاطِئُونَ إِلَى الْجَحِيمِ، وَجَمِيعُ الَّذِينَ نَسُوا اللهَ.» (مزمور ٩: ١٨).

كُلُّ تِلْكَ الأُمُورِ يُمْكِنُ مَحْوُهَا، مِثْلَ عَقَاقِيرَ مُوجِعَةٍ. وَهَكَذَا، فَإِنَّ الإِنْسَانَ، الَّذِي كَانَ قَدْ خُدِّرَ بِأَهْوَاءِ وَمَسَرَّاتِ الحَوَاسِّ، يُصْبِحُ حَارًّا مَرَّةً أُخْرَى، وَيَتَحَقَّقُ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الحَيَاةِ كَانَ يَعِيشُهَا، وَيُصْبِحُ مُطَوَّبًا بِسَبَبِ الأَلَمِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ فِي نَفْسِهِ.

بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَبَّخَتْ كَلِمَاتُ بُولُسَ الرَّسُولِ الإِنْسَانَ الَّذِي دَنَّسَ فِرَاشَ زَوَاجِ أَبِيهِ، إِذْ كَانَ غَافِلًا عَنْ خَطِيئَتِهِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا حَلَّ دَوَاءُ الإِصْلَاحِ فِي البَيْتِ، بَدَأَ يُعَزِّيهِ، وَكَأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ مُطَوَّبًا بِحُزْنِهِ، وَذَلِكَ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ: «لِئَلاَّ يُبْتَلَعَ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْحُزْنِ الْمُفْرِطِ» (٢ كُورِنْثُوس ٢: ٧، مَعَ مُقَارَنَةِ ١ كُورِنْثُوس ٥: ١-٥).

فَلْنَتَأَمَّلْ نَحْنُ أَيْضًا فِي هَذَا الأَمْرِ عِنْدَمَا نُفَكِّرُ فِي تَطْوِيبِ الحَزَانَى، فَإِنَّ عِلَاجَ الخَطِيئَةِ يَكْمُنُ فِي حُزْنِ التَّوْبَةِ. وَلَكِنْ يَبْدُو لِي أَنَّ «الكَلِمَةَ» (أَيْ:

«كَلِمَةُ اللهِ المُتَجَسِّدُ») يُشِيرُ إِلَى مَا هُوَ أَعْمَقُ مِنْ ذَلِكَ، إِذْ يَقْصِدُ أَنْ يُدْرِكَنَا بُعْدًا آخَرَ لِتَأْثِيرِ الحُزْنِ الشَّدِيدِ.

لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَقْصِدُ الإِشَارَةَ إِلَى التَّوْبَةِ عَنِ الخَطِيئَةِ فَقَطْ، لَكَانَ مِنَ الأَوْلَى أَنْ يَعْتَبِرَ مُطَوَّبِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَزِنُوا، أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي حُزْنٍ دَائِمٍ. فَبِالمُقَارَنَةِ مَعَ المَرَضِ، نَعْتَبِرُ مُطَوَّبِينَ الَّذِينَ تَعَافَوْا، وَلَيْسَ الَّذِينَ هُمْ فِي حَالَةِ شِفَاءٍ مُسْتَمِرٍّ، إِذْ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّ الشِّفَاءَ المُسْتَمِرَّ يُشِيرُ، فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، إِلَى وُجُودٍ دَائِمٍ لِلمَرَضِ.

وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِهَذَا المَعْنَى، وَكَأَنَّ «الكَلِمَةَ» قَدْ خَصَّصَ هَذَا التَّطْوِيبَ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَحْزَنُونَ بِسَبَبِ الخَطِيئَةِ فَقَطْ. إِذْ نَجِدُ كَثِيرِينَ قَدْ عَاشُوا حَيَاةً بِلَا لَوْمٍ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُمْ هَذَا الصَّوْتُ الإِلٰهِيُّ بِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ المَدِيحَ.

إِنَّ أَيَّ خَطِيئَةٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً، يُسَجِّلُهَا التَّارِيخُ فِي حَيَاةِ القِدِّيسِينَ! فَهَلْ «الكَلِمَةُ» مُزْمِعٌ أَنْ يَسْتَثْنِيَهُمْ مِنْ هَذَا التَّطْوِيبِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُنْذُ بَدَايَةِ حَيَاتِهِمْ مَرْضَى، وَلَا هُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى الحُزْنِ الَّذِي يَتَأَتَّى مِنَ التَّوْبَةِ؟

أَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِ المَعْقُولِ الافْتِرَاضُ أَنَّهُمْ يُسْتَثْنَوْنَ مِنَ التَّطْوِيبِ الإِلٰهِيِّ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُخْطِئُوا وَلَا عَالَجُوا الخَطِيئَةَ بِالحُزْنِ؟ وَأَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ يُخْطِئَ الإِنْسَانُ مِنْ أَنْ يَعِيشَ بِلَا خَطِيئَةٍ، إِنْ كَانَتْ نِعْمَةُ المُعَزِّي لَا تُمْنَحُ إِلَّا لِلَّذِينَ يَتُوبُونَ فَقَطْ؟ لِأَنَّهُ يَقُولُ: «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لِأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ».

فَلْنَتَّبِعْ، إِذًا، بِقَدْرِ الإِمْكَانِ، ذَاكَ الَّذِي، كَمَا يَقُولُ حَبَقُّوقُ النَّبِيُّ: «يُمَشِّينِي (أَوْ يُوقِفُنِي) عَلَى مُرْتَفَعَاتِي» (حب ٣: ١٩)، وَنَخْتَبِرْ مَرَّةً أُخْرَى المَعْنَى الكَامِنَ فِي هَذَا القَوْلِ، حَتَّى نَعْرِفَ لِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الحُزْنِ يُعْطَى الوَعْدُ بِتَعْزِيَةِ **الرُّوحِ القُدُسِ**.

مِنْ ثَمَّ، فَلْنَفْحَصِ الحَيَاةَ البَشَرِيَّةَ لِنَعْرِفَ أَوَّلًا مَا هُوَ هَذَا الحُزْنُ، وَلِمَاذَا يَحْدُثُ! فَمِنَ الوَاضِحِ لِلْجَمِيعِ أَنَّ الحُزْنَ إِنَّمَا هُوَ مَيْلٌ حَزِينٌ لِلنَّفْسِ، يَنْتُجُ عَنِ الحِرْمَانِ مِنْ أُمُورٍ مُرْضِيَةٍ، وَهُوَ حُزْنٌ لَا يَجِدُ مَكَانًا لَدَى النَّاسِ الَّذِينَ يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ فِي سَعَادَةٍ.

فَمَثَلًا، إِنْسَانٌ حَيَاتُهُ كُلُّهَا مُزْدَهِرَةٌ؛ فَهُوَ سَعِيدٌ فِي زَوَاجِهِ، وَمَسْرُورٌ بِأَبْنَائِهِ، وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَعُونَةِ أَقَارِبِهِ. وَهُوَ مُحْتَرَمٌ فِي المُجْتَمَعِ، وَمُكَرَّمٌ لَدَى السُّلُطَاتِ، وَمُقَاوِمُوهُ يَخَافُونَهُ، وَالَّذِينَ يَرْأَسُهُمْ يُقَدِّرُونَهُ، وَأَصْدِقَاؤُهُ يُرَحِّبُونَ بِهِ دَائِمًا. وَهُوَ ثَرِيٌّ، وَمُتَمَتِّعٌ بِالحَيَاةِ، وَرَاضٍ، وَبِلَا هَمٍّ، وَلَدَيْهِ عَافِيَةٌ فِي جِسْمِهِ؛ فَهُوَ يَمْلِكُ كُلَّ مَا يَسْتَحِقُّ الاهْتِمَامَ.

وَلَكِنْ، لِنَفْتَرِضْ أَنَّهُ حَدَثَ تَغَيُّرٌ فِي ظُرُوفِهِ المُيَسَّرَةِ؛ فَرُبَّمَا سَبَّبَتْ لَهُ إِحْدَى المِحَنِ الانْفِصَالَ عَنْ أَعَزَّائِهِ، أَوْ فَقَدَ مُتَلَكَاتِهِ، أَوْ عَانَى فِي صِحَّتِهِ. حِينَئِذٍ، فَإِنَّ تَجَرُّدَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ مُرْضٍ، يُسَبِّبُ مَا نُسَمِّيهِ حُزْنًا. وَبِذَلِكَ، يُعْتَبَرُ تَعْرِيفُنَا لِلْحُزْنِ صَحِيحًا، وَيَكُونُ الحُزْنُ هُوَ إِحْسَاسٌ مُؤْلِمٌ، سَبَبُهُ الحِرْمَانُ مِمَّا هُوَ مُرْضٍ.

إِذًا، فَإِذَا فَهِمْنَا أَنَّ الحُزْنَ البَشَرِيَّ المَعْرُوفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُرْشِدًا لِمَا هُوَ غَيْرُ مَعْرُوفٍ، حَتَّى يُصْبِحَ وَاضِحًا، فَمَا هُوَ إِذَنْ هَذَا الحُزْنُ الَّذِي يُعْتَبَرُ مُطَوَّبًا، وَالَّذِي تَتْبَعُهُ تَعْزِيَةٌ؟

فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ خَسَارَةَ الخَيْرَاتِ الَّتِي اِمْتَلَكَهَا الإِنْسَانُ تُسَبِّبُ حُزْنًا فِي هَذَا العَالَمِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا أَحَدَ يَحْزَنُ عَلَى خَسَارَةِ أَشْيَاءَ غَيْرِ مَعْرُوفَةٍ لَدَيْهِ. لِذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَوَّلًا مَا هُوَ الصَّلَاحُ الحَقِيقِيُّ، وَمِنْ ثَمَّ نَتَفَكَّرُ فِي الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ فَقَطْ يُمْكِنُنَا أَنْ نَبْلُغَ إِلَى الحُزْنِ الَّذِي يُعْتَبَرُ مُطَوَّبًا.

مِثَالُ الوُجُودِ فِي الظَّلَامِ، وَالوُجُودِ فِي النُّورِ:

دَعْنَا نَأْخُذْ مِثَالًا: شَخْصَانِ، أَحَدُهُمَا وُلِدَ فِي مَكَانٍ مُظْلِمٍ، بَيْنَمَا الآخَرُ – بَعْدَ أَنْ تَمَتَّعَ بِالنُّورِ – أُغْلِقَ عَلَيْهِ بِالقُوَّةِ فِي مَكَانٍ مُظْلِمٍ. فَمِنَ المُؤَكَّدِ أَلَّا يَكُونَ لِكِلَيْهِمَا نَفْسُ الشُّعُورِ؛ لِأَنَّ ذَاكَ الَّذِي حُرِمَ مِنَ النُّورِ يَشْعُرُ بِأَنَّ خَسَارَةَ النُّورِ أَمْرٌ مُحْزِنٌ جِدًّا، فِي حِينِ أَنَّ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ نِعْمَةَ النُّورِ إِطْلَاقًا، يَظَلُّ بِدُونِ حُزْنٍ، فَهُوَ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ فَقَدَ شَيْئًا، لِأَنَّهُ تَرَبَّى فِي الظَّلَامِ.

وَهَكَذَا، فَإِنَّ الرَّغْبَةَ فِي التَّمَتُّعِ بِالنُّورِ تَدْفَعُ الأَوَّلَ لِيَسْتَعْمِلَ كُلَّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ لِكَيْ يَرَى مَرَّةً أُخْرَى مَا قَدْ حُرِمَ مِنْهُ بِالعُنْفِ؛ فِي حِينِ أَنَّ الآخَرَ يَشِيخُ فِي الظَّلَامِ، لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ مَا لَدَيْهِ جَيِّدٌ، إِذْ لَا يَعْرِفُ مَا هُوَ أَفْضَلُ.

وَهَذَا هُوَ نَفْسُ الأَمْرِ فِي مَوْضُوعِ تَأَمُّلِنَا. فَإِذَا أَمْكَنَ لِشَخْصٍ أَنْ يُدْرِكَ الصَّلَاحَ الحَقِيقِيَّ، ثُمَّ يَتَحَقَّقَ مِنْ فَقْرِ الطَّبِيعَةِ البَشَرِيَّةِ، فَهُوَ بِالتَّأْكِيدِ سَيَعْتَقِدُ أَنَّ الرُّوحَ فِي ضِيقٍ، لِأَنَّهُ سَيَعْتَبِرُ أَنَّ الحَيَاةَ الحَاضِرَةَ تَنْقَضِي فِي حُزْنٍ، لِأَنَّهَا اسْتُبْعِدَتْ مِنْ هَذَا الصَّلَاحِ الحَقِيقِيِّ.

وَلِذَلِكَ، فَإِنَّنِي أَقُولُ إِنَّ «الكَلِمَةَ» لَا يَعْتَبِرُ الحُزْنَ مُطَوَّبًا فِي ذَاتِهِ، بَلْ بِالحَرِيِّ التَّحَقُّقَ مِنَ الصَّلَاحِ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى هَذِهِ الحَالَةِ مِنَ الحُزْنِ، وَالَّذِي يَكُونُ بِسَبَبِ أَنَّ البَاعِثَ إِلَى الرَّغْبَةِ غَائِبٌ مِنْ حَيَاتِنَا.

بَعْدَ ذَلِكَ، عَلَيْنَا أَنْ نَسْأَلَ: مَا هُوَ هَذَا النُّورُ الَّذِي لَا يُشْرِقُ فِي طَبِيعَتِنَا البَشَرِيَّةِ؟ هَلْ يَكُونُ ذَلِكَ لِأَنَّنَا نَشْتَهِي شَيْئًا بَاطِلًا وَمُحَيِّرًا؟ فَكَيْفَ أُسَمِّي الشَّيْءَ غَيْرَ المَرْئِيِّ؟ وَكَيْفَ أَصِفُ الشَّيْءَ غَيْرَ المَادِّيِّ؟ وَكَيْفَ أُظْهِرُ مَا لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ، أَوْ أُدْرِكُ مَا لَيْسَ لَهُ حَجْمٌ، وَلَا كَمِّيَّةٌ، وَلَا نَوْعِيَّةٌ، وَلَا شَكْلٌ؟

عِنْدَمَا نَعْتَبِرُ الحُزْنَ مُطَوَّبًا، فَيَبْدُو المَعْنَى المَفْهُومُ ضِمْنًا أَنَّهُ يَعْنِي: أَنَّ النَّفْسَ يَجِبُ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى الصَّلَاحِ الحَقِيقِيِّ، وَلَا تَغْمُرَ ذَاتَهَا فِي خِدَاعَاتِ الحَيَاةِ الحَاضِرَةِ. لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ قَدْ رَأَى تِلْكَ الأُمُورَ بِوُضُوحٍ أَنْ يَعِيشَ بِدُونِ دُمُوعٍ، أَوْ يُصَدِّقَ فِي قَلْبِهِ أَنَّ مَنْ يَسْتَغْرِقُ بِعُمْقٍ فِي مَسَرَّاتِ هَذِهِ الحَيَاةِ يَكُونُ سَعِيدًا، بَلْ هُوَ **بَائِسٌ وَمُضَلَّلٌ**.

إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ بِالخَيْرَاتِ الَّتِي حُرِمَتْ مِنْهَا طَبِيعَتُنَا البَشَرِيَّةُ، يَقْضُونَ حَيَاتَهُمُ الحَاضِرَةَ فِي السَّعْيِ وَرَاءَ المَسَرَّةِ. وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِالأَشْيَاءِ الحَاضِرَةِ، لَا يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الأَفْضَلِ مِنْهَا. لِذَلِكَ، يَعْتَبِرُ «الكَلِمَةُ» أَنَّ الحُزْنَ مُطَوَّبٌ، وَهُوَ لَا يَحْكُمُ بِأَنَّهُ مُطَوَّبٌ فِي ذَاتِهِ، بَلْ بِسَبَبِ مَا يَنْتُجُ عَنْهُ، لِأَنَّهُ يَقُولُ: «طُوبَى لِلْحَزَانَى»، وَلَكِنَّهُ لَا يُنْهِي الجُمْلَةَ بِذَلِكَ، بَلْ يُضِيفُ: «لِأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ».

وَأَعْتَقِدُ أَنَّ «الكَلِمَةَ» هُوَ الَّذِي أَقْنَعَ **مُوسَى النَّبِيَّ** بِتِلْكَ الأُمُورِ فِيمَا يَخُصُّ الطَّقْسَ السِّرِّيَّ لِلْفِصْحِ، لِأَنَّهُ فَرَضَ الفَطِيرَ فِي أَيَّامِ العِيدِ، وَلَكِنْ لِكَيْ يُتَبَلْوا الطَّعَامَ، فَرَضَ أَعْشَابًا مُرَّةً (اُنْظُرْ خُرُوجَ ١٢: ٨).

فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُنَا المُشَارَكَةُ فِي العِيدِ السِّرِّيِّ بِأَيَّةِ طَرِيقَةٍ، إِلَّا بِمَزْجِ أَعْشَابِ هَذِهِ الحَيَاةِ الأَرْضِيَّةِ المُرَّةِ بِفَطِيرِ الحَيَاةِ البَسِيطَةِ.

وَقَدْ رَأَى **دَاوُدُ النَّبِيُّ** أَنَّهُ بَلَغَ إِلَى أَعْلَى قِمَّةٍ مِنَ الحَظِّ الصَّالِحِ، أَيْ المُلْكِ، وَمَعَ ذَلِكَ، فَقَدْ أَضَافَ بِوَفْرَةٍ أَعْشَابًا مُرَّةً إِلَى حَيَاتِهِ، إِذْ كَانَ يَرْثِي لِغُرْبَتِهِ المُسْتَمِرَّةِ فِي الجَسَدِ، قَائِلًا: «وَيْلٌ لِي، فَإِنَّ غُرْبَتِي قَدْ طَالَتْ»

(مَزَامِيرُ ١١٩: ٥، سَبْعِينِيَّة).

وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَتَحَقَّقَ بِوُضُوحٍ أَكْثَرَ مِنْ قُوَّةِ هَذَا الحُزْنِ المُطَوَّبِ، فَلْيَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ الغَنِيِّ وَلِعَازَرَ. فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِلْغَنِيِّ: «اُذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذَلِكَ لِعَازَرُ البَلَايَا. وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ» (لُوقَا ١٦: ٢٥).

لَقَدْ رَسَمَ **اللهُ** لَنَا أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَتَمَتَّعَ بِالخَيْرَاتِ النِّقِيَّةِ غَيْرِ المُخْتَلِطَةِ بِالشَّرِّ، وَمَنَعَ اقْتِرَانَ اخْتِبَارِ الشَّرِّ بِمَا هُوَ صَالِحٌ. وَلَكِنَّنَا، بِشَرَاهَتِنَا، مَلَأْنَا أَنْفُسَنَا بِاخْتِيَارِنَا بِمَا هُوَ عَكْسُ ذَلِكَ.

أَقْصِدُ أَنَّنَا **تَذَوَّقْنَا العِصْيَانَ لِكَلِمَةِ اللهِ**، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ طَبِيعَتَنَا البَشَرِيَّةَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ دَائِمًا فِي كِلْتَا الحَالَتَيْنِ، فَتُشَارِكُ فِي الحُزْنِ كَمَا فِي الفَرَحِ.

الحُزْنُ عَلَى خَسَارَةِ السَّمَاوِيَّاتِ، لَا الأَرْضِيَّاتِ:

فَعَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّهُ مِنَ المُطَوَّبِ أَنْ نَسْتَبْقِيَ نَصِيبَنَا مِنَ الفَرَحِ لأَجْلِ خَيْرَاتِ الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الحَقِيقِيَّةِ، وَأَنْ نُتَمِّمَ وَاجِبَ الحُزْنِ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ القَصِيرَةِ وَالعَابِرَةِ. وَيَجِبُ أَلَّا نَعْتَبِرَ الحِرْمَانَ مِنْ أَشْيَاءِ هَذِهِ الحَيَاةِ الزَّائِلَةِ خَسَارَةً، بَلْ بِالأَحْرَى أَنْ نَفْقِدَ مَا نَعُدُّهُ مُفَضَّلًا لِنَفُوزَ بِالأَسْمَى.

إِنَّ التَّعْزِيَةَ تَتَأَتَّى مِنْ مُشَارَكَةِ «**المُعَزِّي**»، لِأَنَّ عَطِيَّةَ التَّعْزِيَةِ إِنَّمَا هِيَ العَمَلُ الخَاصُّ **بِالرُّوحِ القُدُسِ**، الَّذِي نَسْأَلُ أَنْ نَكُونَ مُسْتَحِقِّينَ لَهُ بِنِعْمَةِ **رَبِّنَا يَسُوعَ المَسِيحِ**، الَّذِي لَهُ المَجْدُ إِلَى الأَبَدِ، آمِينَ. (يتبع)

(١) مُترجم من كتاب:

Ancient Christian Writers, Vol. 18, p. 85.

في هذا اليوم المهيب ، حيث نقف أمام سرّ الصليب المقدّس، نتأمّل في تفسير الآباء العظام لهذا الحدث الفدائي، الذي به أشرق علينا نور الخلاص. إنّ الصليب ليس علامة هزيمة، بل هو تاج النصر الإلهي، الذي من خلاله أتمّ المسيح الإله المتجسّد عمل الفداء.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**: «لقد غلب المسيح لا بالسلاح، بل بالصليب؛ لم يهزم الأعداء بالجيش، بل بالآلام.»؛ فبموته، سحق الموت، وبجراحاته شفانا، وباتضاعه رفعنا. هذا السرّ العجيب يعكس الحب الإلهي الذي يفوق كل إدراك، حيث قدّم المسيح نفسه ذبيحة حيّة عن البشريّة جمعاء.

أما **القديس غريغوريوس النزينزي** فيعلّمنا أنّ الصليب هو المصالحة بين السماء والأرض، حيث يقول: «كان يجب أن يُقدَّم فداء عظيم يليق بالله، لكي يُحرّر الإنسان الساقط من قيود الموت.»؛ ومن هنا، فإنّنا لا نرى في الصليب مأساة بشرية فقط، بل نرى القدرة الإلهيّة التي تقودنا إلى القيامة والمجد الأبدي.

ويُضيف **القديس أثناسيوس الإسكندري** أن المسيح قد «مدّ ذراعيه على الصليب ليجمع الجميع تحت جناحيه، مانحًا إيانا الخلاص الذي لا يفنى.»؛ وهكذا، فإن الصليب هو الطريق إلى القيامة، وهو وسيلة التألُّه التي بها يشترك الإنسان في الحياة الإلهيَّة.

العذراء مريم عند أقدام الصليب:

ولكن، في قلب هذا الحدث المهيب، تظهر **العذراء القديسة مريم** واقفة عند أقدام الصليب، متألّمة مع ابنها، شريكة في آلامه الخلاصيَّة. لقد أدركت العذراء، منذ لحظة البشارة، أن ابنها هو حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم، لكنها الآن ترى هذا السرّ يتمّ أمام عينيها، وهي تقدّمه طوعًا كذبيحة حب من أجل خلاص البشر.

يقول **القديس غريغوريوس بالاماس**: «لقد كانت العذراء واقفة عند الصليب كأمٍ للمتألمين، لكن أيضًا كأمٍ للكنيسة، متحدة بآلام ابنها، مشاركة في سرّ الفداء.»؛ وكما كانت مريم قد قالت عند البشارة: «ليكن لي كقولك»، فإنها عند الصليب تقول بقلبها: «ليكن فداؤه حياةً للعالم.»

أما **القديس كيرلُّس الإسكندري** فيؤكّد أنَّ **العذراء مريم** لم تكن مجرّد شاهدة على الصليب، بل كانت أم الفادي الذي يُعطي حياته عن الجميع، فيقول: «كما أن المرأة الأولى، حواء، كانت سبب سقوط البشرية، هكذا مريم، المرأة الجديدة، قدّمت ابنها ليكون باب الخلاص لنا جميعًا.»؛ وهكذا، فإنها لم تكن فقط أمًا للمسيح بالجسد، بل صارت أمًا لكل مؤمن بالصليب.

الصليب والفداء في تعليم الآباء القديسين:

يقول **القديس باسيليوس الكبير**: «الصليب هو سلم السماء، وهو المفتاح الذي فتح لنا أبواب الفردوس، وهو مرآة محبة الله للبشر.» ؛ هذا يعلّمنا أن الصليب ليس مجرد حدث تاريخي، بل هو السبيل إلى الحياة الجديدة، حيث يُرفع الإنسان مع المسيح ليحيا فيه إلى الأبد.

وإذ نتأمل في **الجمعة العظيمة**، فلنتذكر أن الصليب ليس فقط علامة آلام، بل باب القيامة والمجد. ولنتأمل في **أمنا العذراء**، التي وقفت بثبات وإيمان، تعلمنا كيف نحمل صليبنا، واثقين أن الصليب يقودنا إلى الحياة الأبديَّة.

«أيتها العذراء النقيَّة، يا من وقفتِ عند الصليب مملوءة بالألم، تشفّعي بنا أمام ابنك الإلهي، لكي نجد في صليبه خلاص نفوسنا.»

المجد للصليب المقدّس، والمجد **للمصلوب**، القائم من بين الأموات، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين، آمين. **(جمعية نور المسيح)**

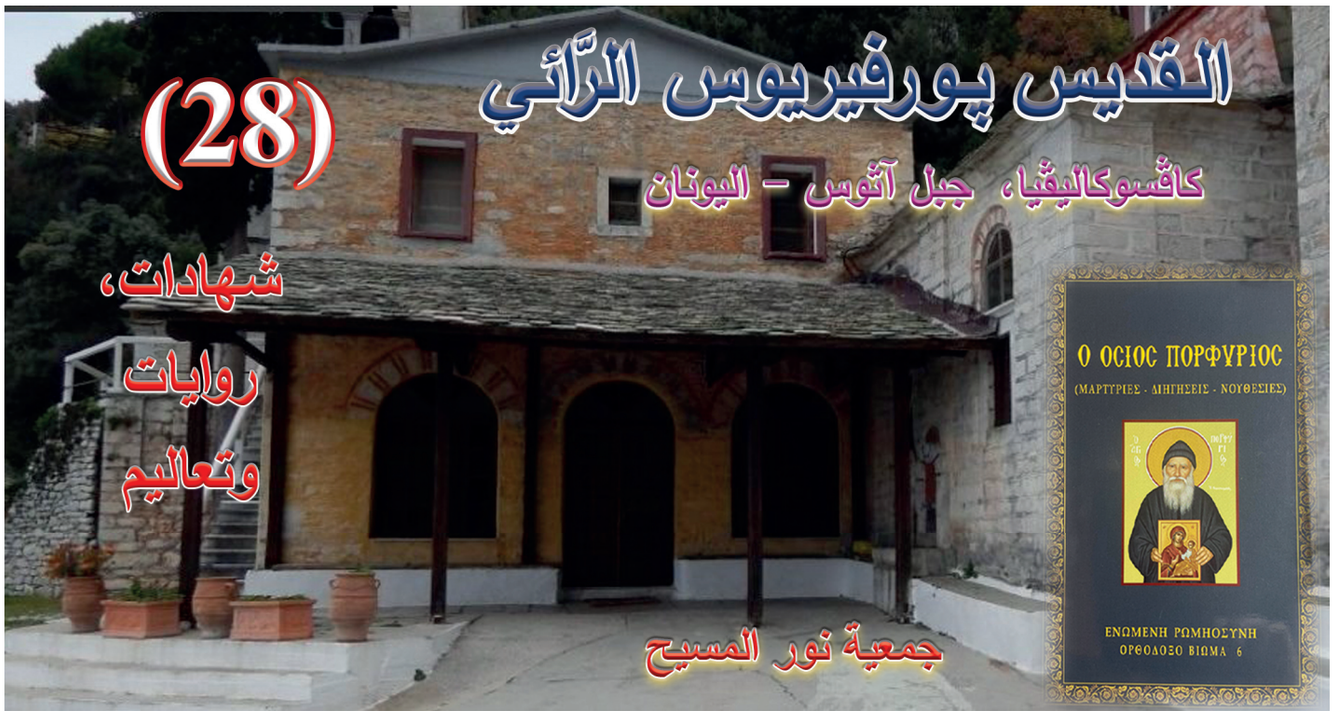

٨ – أَقَلُّ ما يُمكن عن القديس پورفيريوس:

شهادة راهبة (بدون ذكر الاسم):

لأوَّل مرَّة، ذهبتُ لزيارة **الشيخ پُورفيريوس** خلال الفترة التي كانت تحدث فيها العديد من الهزَّات الأرضيّة في أثينا (سنة ١٩٨١).

خارج قلايته في أوروبوس، كانت هناك مجموعة من الشباب، فقالوا لنا أن نذهب جميعًا لطلب صلواته، لأنَّه لم يكن في حالةٍ حسنة. حالما نلنا صلاته وأخذنا بركته، قال لنا:

ـ ماذا تقول الصحف عن الهزَّات الأرضيّة؟!

فأجاب الشباب: « **يقولون إنّها هزَّات أرضيَّة تكتونيَّة (أي حركتها من الأسفل إلى الأعلى).**»

فأجابنا **الشيخ پُورفيريوس**: «**لا يتكلّمون بشكلٍ صحيح، فأنا أرى أنّها هزَّات أرضيَّة،** بشكل جانبي، عرَضي.» . ثم قال: «**الأب إيفانيوس يصف الهزَّات الأرضيَّة التي بالعرض أي جانبيًّا، بشكلٍ رائع في كتابه.**»

لا أتذكَّر إن كان قد قرأ لنا مقتطفاتٍ من ذلك الكتاب الذي كان بجانبه، لكنَّنا غادرنا ممتلئين بفرحٍ لا يوصف، وكأنَّنا نحلِّق في السماء.

رقد بالرّبّ **أبي الروحي**، ومضيتُ لأرى **الشيخ پُورفيريوس**. كان خارجًا في الغابة يتحدّث مع أحد الأشخاص بينما يتمشّى. لم نكن نعرف مكانه، فانتظرنا عدّة ساعات. كان هناك الكثير من الناس بانتظاره، فقالوا لنا أن نأخذ بركته فقط.

عند دخولي إلى القلاية، رأيتُ صورة **أبي الروحي** موضوعة فوق الطاولة، فتفاجأت.

فقال لي: «**ألا تنظرين إليه؟ كان لديه الكثير من المحبّة! صلواته لتكن معنا. لقد كان شخصًا قديسًا. تابعتُ جنازته من هنا، وكان هناك الكثير من الناس.**»

فقلتُ: «**كان أبي الروحي، وأرغب في التكلّم معك.**»

فقال: «**الآن لا أستطيع، هناك الكثير من الناس ينتظرون لأخذ البركة. تعالي إلى هنا بتواتر (عدّة مرات)، وسأتمكّن في إحدى المرّات أن أراكِ وأتكلّم معك.**»

ذهبتُ لزيارته مرَّةً أخرى، لكن كان بانتظاره الكثير من الناس. أخبروني أنّه مريض، وغالبًا لن يتمكّن من مقابلة أحد. كنتُ قد ذهبتُ مقرِّرةً البقاء والانتظار طوال اليوم على رجاء مقابلته.

في إحدى اللحظات، خرج من الغرفة وهو ملفوفٌ ببطانيّة، ممسكًا في يده كيس المصل. اقترب منَّا ونظر إلينا جميعًا، ثم قال: «**لا تُغادروا، سأذهب لزيارة الطبيب وسأعود لأراكم.**»

عندما عاد، فكّرتُ على الأقل أن أحظى ببركته. وعندما دخلتُ إلى قلايته، أبقاني لمدّة ساعة، ثم قال لي: «**رأيتُكِ في الخارج، وقلتُ في نفسي: يا لها من نفسٍ تعيسةٍ وشقيَّة!**»

ـ وأثناء تحسسه نبضي، وصف لي قريتي!، وبينما كان يصفها بالتفاصيل الدقيقة، سألني عن أحد تفاصيل وصفه، فأجبته خطأً. فقال لي: «**ليس هو هكذا، الآن أراه. عندكم أيضًا دير على مرتفع، وداخله يوجد جرفٌ شاهق. إنّه مكان رائع للغاية لمن يرغب في الهدوء. لو كنتُ بصحّة جيّدة، لذهبتُ لفتح هذا الدير والإقامة فيه.**»

وصف لي أيضًا والديَّ وإخوتي، وقال: «**أنتم الإخوة تتشابهون فيما بينكم في الطباع (الملامح الشخصيّة).**» ثم بدأ يصف لي مشاكلي الصحّية، ويشرح لي مستخدمًا مصطلحات طبيّة، وسألني: «**هل يحدث معك كما أصف؟**»

كنتُ أعاني من مشاكل في المعدة، فقال لي: «**مشكلتكِ ليست في المعدة، وإنّما في الأمعاء. كلّ ما يحدث معكِ هو بسبب الكآبة، فأنتِ حسّاسة للغاية، ومقتنعة بأنَّ لا أحد يُحبّكِ.**»

ثم قال:«**سأخبرُكِ بسرّ: لا تطلبي أن يُحبّوكِ، بل حاولي أنتِ أن تُحبي الآخرين، وعندها الجميع سيحبّونكِ. هذا هو السرّ، وإذا طبّقتِه ستُغادركِ الكآبة.**».

غادرتُ وأنا إنسانة أخرى تمامًا.

والدة الإله فيماتاريسا العجائبية

باناچيا فيماتاريسا أو كيتوريسا هي أيقونة **فريدة ومميّزة** تابعة لدير فاتوبيدي العامر للروم الأرثوذكس. وهي موضوعة مقابل المذبح المقدَّس في كنيسة البشارة المركزيّة المقدَّسة لكاثوليكون الدير، وتحديدًا في **النارثيكس الشرقيّ** من الهيكل المقدَّس.

وبحسب التقليد، فإن **أركاديوس، ابن الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير**، وُجِدَ داخل شجرة العلّيق بعدما قذفته أمواج البحر، إثر تحطُّم السفينة التي كان يُبحر على متنها. وقد كان ذلك بسبب تدخُّل العذراء المعجزيّ، إذ أنقذته من الغرق المحتوم في المنطقة التي سيُبنى فيها **دير فاتوبيدي** لاحقًا. وهناك، **وُجِدَت هذه الأيقونة العجائبيَّة للسيدة مريم العذراء**. ومن هنا جاء اسم الدير «**فاتوبيدي**»، المكوَّن من «**فاتو**» (**علّيق**) و«**بيذي**» (**ولد**).

ترتبط هذه الأيقونة العجائبيَّة بالمعجزة التي حدثت في القرن العاشر، عندما تعرض الدير لهجوم من قِبَل **القراصنة العرب**.

في ذلك الوقت، كان الشماس والمسؤول عن المذبح في كاثوليكون الكنيسة المركزيَّة، ويدعى **ساڤاس**، وهو الأمين والمسؤول المباشر عن الهيكل المقدَّس وما يحويه من الذخائر والأيقونات المقدَّسة.

وبحكمةٍ وسرعة بديهة، استطاع **ساڤاس (سابا)** إلقاء **أيقونة العذراء العجائبيَّة** في **البئر الملاصق للهيكل المقدَّس من الخارج**، وأيضًا ألقَى صليب **القديس قسطنطين الكبير**، وهو صليب فريد من نوعه، إضافةً إلى الشمعة المضاءة باستمرار، التي كانت موضوعة أمام الصليب والأيقونة. وهكذا، حُفظت هذه المقدَّسات من أيدي المغيرين والأعداء.

تمكّن **القراصنة العرب** من نهب الدير بالكامل، وأسروا **الشماس ساڤاس** مع باقي الرهبان، ثم اقتادوهم إلى جزيرة كريت. وظلّوا هناك إلى أن تمَّ تحرير الجزيرة من قبضة **القراصنة العرب** بعد سبعين عامًا، وذلك على يد **الإمبراطور نيكيفوروس فوكاس**. وبعد تحرير كريت، أُطلق سراح **الشماس ساڤاس**، وعاد إلى الدير وهو طاعنٌ في السِّن.

عند عودة **الشماس ساڤاس** إلى الدير، أمر **رئيس الدير آنذاك، نيقولاوس**، بفتح البئر. وهناك – ويا للعجب!– وجدوا الأيقونة العجائبيَّة والصليب واقفين على سطح الماء، والمصباح لا يزال مشتعلًا تمامًا كما كان قبل سبعين عامًا!

لقد حدثت هنا معجزة مزدوجة: فالأواني المقدَّسة التي أُودِعَت في البئر ظلَّت عائمة فوق الماء، لم تتأثَّر ولم تبلى بتاتًا، وذلك **بمعجزة وعناية السيدة العذراء مريم**. ليس هذا فحسب، بل إنَّ الشمعة استمرت مشتعلة طوال سبعين سنة دون أن تنطفئ أو تنفد!

ومنذ ذلك الحين، **وتخليدًا لذكرى المعجزة**، يُرتَّل **قانون ابتهال إلى والدة الإله الكليَّة القداسة** بعد ظهر كُلّ يوم إثنين، كما يُقام قدَّاس إلهي كل **يوم ثلاثاء** في الكنيسة المركزيَّة (الكاثوليكون).

أما في جميع **ابتهالات الدير (صلوات الليتي)**، فتتصدَّر أيقونة العذراء العجائبيَّة هذه المراسيم، تقديسًا لعمل العناية الإلهيَّة الذي تجلَّى في هذه المعجزة.

ويُحتَفل بهذه الأيقونة العجائبيَّة بشكل خاص **يوم الثلاثاء من الأسبوع الجديد** (أي في الفترة بين **أحد الفصح والأحد الأول بعد الفصح، أحد توما**). وخلال هذا الاحتفال، تُقام صلاة ودورة إحتفاليَّة عظيمة حول الدير، يُرافقها زياح مهيب لهذه الأيقونة المحيية العجائبيَّة.

اليوم، تُوضَع هذه الأيقونة مقابل المذبح المقدَّس، في مكان يُدعى «**سينثرونو**»، وهو موقع منحنٍ يقع في **الجهة الشرقية من الهيكل، مقابل المذبح**. وتُعرف هذه الأيقونة أيضًا باسم «**كتيتوريسا**»، والتي تعني «المؤسِّسة» أو «البانية» أو «الراعية».

ربما يعود هذا اللقب إلى ارتباط **اكتشاف الأيقونة** بإعادة بناء الدير على يد الإخوة الثلاثة **أثناسيوس ونيقولاوس وأنطونيوس**، الذين أسَّسوا الدير، ثم كرّسوا حياتهم للرهبنة في نهاية القرن التاسع تقريبًا.

هناك أيضًا حادثة أخرى مرتبطة بهذه الأيقونة: كان هناك راهب يواجه صعوبة في فهم معنى الآية: «أَنَّ أَلْفَ سَنَةٍ فِي عَيْنَيْكَ يَا رَبُّ مِثْلَ يَوْمٍ أَمْسِ ٱلَّذِي عَبَرَ» (مز٨٩: ٤)، وكان متألمًا لأنه لم يجد من يفسرها له.

وبالصدفة، كان في الدير آنذاك **البطريركان السابقان للقسطنطينية، كيرلس وكبريانوس**، واجتمع العديد من الرهبان من مختلف أنحاء الجبل المقدس لنيل بركتهما.

وخلال احتفال عيد البشارة، الذي يُعتبر العيد الرئيسي للدير، وبينما كان **البطريرك كيرلس** متجهًا للسجود أمام الذخائر المقدسة بعد صلاة التقديس، سمع ذلك الراهب صوتًا ينبعث من أيقونة فيماتاريسا، يفسر له بالضبط معنى الآية.

عندها، امتلأ الراهب بالفرح، وذرف دموع الامتنان **لوالدة الإله** على هذه المعجزة.

المصدر: vatopedi.gr

والدة الإله فيماتاريسا العجائبية

Η Θαυματουργός Παναγία Βηματάρισσα

1 أيقونة والدة الإله العجائبيَّة

2 كنيسة البشارة، حيث البئر قرب الهيكل المقدَّس.

3,4,5,6 صور للبئر الذي وضعت فيه الذخائر

7,8 الشمعة المشتعلة التي توضع أمام الصليب والأيقونة.

9 الصليب (صليب القديس قسطنطين الكبير)

10 صورة من الإحتفال بالدورة التقليدية حول الدير.

سيرة القديس نكتاريوس العجائبي

الجزء الرَّابع – الفصل الثالث – تتمة

بعد ظهر أحد الأيام من شهر نيسان، وقبل صلاة الغروب بقليل، كانت الجزيرة تفيض بالعطر، وبعض الغيوم البيضاء تعبر السماء بهدوء، مثل أشرعة المركب.

تلقَّى **القديس نكتاريوس** زيارة أحد اللاهوتيِّين العلمانيِّين، وكان أحد تلاميذه في **ريزاريو** (المدرسة التي كان مديرًا لها). وقد أحضر له هديَّة، وهي مجموعة من الكُتب الفرنسيَّة المهمة.

لكنّه وجده غارقًا في حفر بئر، ولم يتعرَّف إليه بسبب نحوله، وشحوب وجهه، وتقدّمه في السِّن. فقال في نفسه:

ـ كم هو مُنهَك هذا الرجل! لقد أصبحَ شديد النحول! ماذا حلَّ بالعلمِ والكرامة؟

وإذ بدَّل **القديس نكتاريوس** جبَّته، وغسل يديه المليئتين بالوحلِ لاستقبال الزائر، بقي الشاب يُحدِّق إليه، ثمَّ قال:

ـ «يا صاحب السيادة، إنِّي وبعض الأصدقاء، قُدامى تلامذة المدرسة، نشعر بالحُزن...»

فسأل **القديس نكتاريوس**:

ـ «بسبب الفوضى في هذا العالم؟»

ـ «أيّة فوضى؟ ... نحن نشعر بالحزن بسببكَ يا صاحب السيادة.»

ـ «بسببي؟ يا للغرابة. فأنا كما ترى على قيد الحياة، وبصحّة جيّدة، وما زلتُ أعمل. لم أترك بعد هذا العالم المليء بالغرور.»

ـ « أنتَ بالطبع على قيد الحياة... لكن كيف أقول لك؟! مثل هذه العظمة الروحيَّة! أن يُصبح أُسقفٌ مثلك مجدًا للكنيسة...»

ـ «عن أيِّ كنيسة تتكلَّم؟»

ـ ولكن، ليس هناك غير كنيسة واحدة...

ـ كلَّا، فالمجد ليس للذين في وسط الجهاد بانتظار الدينونة، إنَّ المجد هو في مكانٍ ما في الأعالي، في الكنيسة الظافرة.

ـ بالطبع، فأنا لا أُعارض هذا الأمر، إلَّا أنَّ الكنيسة المجاهدة بحاجة إلى أشخاص قادرين وبارزين حتى تتطوّر وتنمو.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أن تنتهي شخصيَّة بهذه الفرادة في الظلام وفي المنفى بهذه السرعة! أن ينتهي بكَ الأمر إلى رتق الخفاف، كما قال لي كوستي! خفاف الراهبات! كم يتفاقم الشرّ والظُّلم في أيامنا هذه! إنَّ العدالة هي في صفِّ الأقوياء والمتملِّقين والدسّاسين.

فجمَدَ **القديس نكتاريوس** في مكانه وهو يُحدّق فيه. ولم يستطع أن يضبط نفسه عن الارتعاش. كان هذا الرجل أنيق الملبس إلى آخر درجة، أشقر، زهريّ الوجه، سمينًا، وكانت عيناه تلمعان بطريقةٍ غريبة ومتحدّية.

القديس نكتاريوس اسقف المدن الخمس

فسأله **القديس نكتاريوس**:

ـ ماذا تعمل؟

ـ إنِّي أُدَرِّس بالطبع... في عددٍ من الجامعات، ولكنّي لا أبحث عن وظيفة في الدولة، بل أنوي التخصُّص في القانون الكَنَسِي، والقيام ببعض الدراسات المتعلِّقة ببتوليَّة الأساقفة.

فتمتم **القديس نكتاريوس**:

ـ « الحياة المهنيَّة للطالب الجامعي، وحُسن الحرفة، والنجاح كما يقول الغرب... لكن ليست الحياة المهنيَّة على هذه الأرض هي التي تُؤمِّن لنا البطاقة.»

ـ « أيَّة بطاقة؟ »

ـ « البطاقة إلى الحياة الأخرى، إلى الأبديَّة؟»

فابتسم الزائر وقال:

ـ « إنَّ كلَّ كلمة يمكن أن تُناقضها كلمة أُخرى» (**قول للقديس غريغوريوس بالاماس – كتاب الثلاثيات – الدفاع عن القديسين الهدوئيين، الثلاثية الأولى، الثلاثية الثانية، الثلاثية الثالثة**). يا صاحب السيادة، إلا أنَّ هناك مفتاحًا من الذهب: فإذا أراد بعض الأشخاص المتنفذين – مثلًا – أن ينشروا مؤلفاتك ويؤمّنوا لها النجاح، استطاعوا ذلك، وإذا لم يُريدوا، فيمكنهم أن يحيكوا حولها مؤامراتٍ من الصمت، فتتلاشى وتسقط في النسيان.»

ـ « لم أكتب في سبيل المجد، بل بدافعٍ من الواجب.»

ـ «هذا هو المفتاح بالضبط! أنت تقول إننا لسنا بحاجةٍ إلى المجد، وهذا أمرٌ مُضحك. إذ عندما أرى أن إحدى مقالاتي قد نُشرت مع اسمي بالخط العريض في الصحف واسعة الانتشار، فإنني أشعر بالسعادة، وأكون مُراءيًا لو قلتُ عكس ذلك. إنها مكافأةٌ روحية بالنسبة لي، ورضًا داخلي. فهل هذا سيِّئٌ؟ إنني أشعر بأنني أعمل روحيًّا، وقد نلت المكافأة على تعبي، وأن عملي مفيد.»

ـ «حسنًا، ما العمل؟ لنتحدّث عن أمرٍ آخر، بما أننا لسنا من الرأي نفسه.»

ـ «لماذا، يا صاحب السيادة؟ هل أنا على خطأ؟ أليس من المسموح أن يكون شخصان جامعيان ومدرّسان للعلم المقدّس على خلاف؟»

ـ «هذا متعلّقٌ بوجهات النظر. إنّ رأي العالم ومجده لا يُهمّانني في شيء، يا صديقي العزيز. أنا لا أهتم إلّا بما يعرضه عليّ الرَّبّ، وبحسب ما يُلهمني إيّاه.»

يتبع

الإصحاح الرابع:

العظة الرابعة عشرة: (١كو٤: ١٧-٢١)

«مَاذَا تُرِيدُونَ؟ أَبِعَصًا آتِي إِلَيْكُمْ أَمْ بِالْمَحَبَّةِ وَرُوحِ الْوَدَاعَةِ؟.» (١كو٤: ٢١). (تتمة)

٥- – ولكن قد يقول البعض: لن نتحدّث عن ذلك، بل أتساءل: لماذا لا تكون ممارسة الفضيلة أمرًا سهلًا؟ إنني أقول لكم: إن أردنا ذلك، فستكون سهلةً للغاية.

أخبرني، أيهما أسهل:أن يهدم أحدٌ جدارًا، ثم يسرق ممتلكات الآخرين فيُلقَى في الحبس، أم أن يكتفي بما لديه، فيكون متحررًا من كلّ خوف؟ ومع ذلك، فإني لَمْ أَقُلْ كُلَّ شَيْءٍ.، فما زال هناك المزيد لأقوله.

أخبرني أيضًا، أيُّهما أسهل: أن يعيش أحدٌ حياةً مريحةً لزمنٍ يسير، بعد أن يكون قد نهب ممتلكات الآخرين، ثمَّ بعد ذلك يُجلَد ويُعذَّب إلى الأبد؟ أم أن يعيش زمنًا يسيرًا في فقر، لكن بكرامة، ثمَّ بعد ذلك ينعم بالراحة والسعادة إلى الأبد؟

إذًا، ينبغي ألَّا نفحص بعدُ ما هو الأكثر نفعًا، بل قبل ذلك، لنفحص ما هو الأسهل. أيُّهما أكثر سعادة: أن يرى أحدٌ حلمًا جميلًا ثمَّ يُعاقَب في الواقع، أم أن يرى حلمًا سيئًا، بينما في الحقيقة يحيا في راحة؟

أليسَ من الواضح جدًّا أن الاختيار الثاني هو الأكثر سعادة؟ فكيف تصف ممارسة الفضيلة بالصعوبة؟ بالتأكيد، ستُصبح صعبةً، لو تُرِكَت لتقديرنا وإهمالنا وتراخينا. لأنَّ ممارسة الفضيلة أمرٌ في غاية السهولة، اسمع ماذا يقول المسيح له المجد: «لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ» (متى ١١: ٣٠). فإن كنتَ لا تَشعر بهذه الخِفَّة، فهذا يرجع إلى أنَّك **لا** تمتلك رغبةً قويَّةً في ممارسة الفضيلة. وكما أنَّ وجود الفضيلة يجعل الأمور الثقيلة أخفَّ، كذلك فإنَّ غيابها يجعل الأمور الخفيفة **ثقيلة**.

أخبرني، هل هناك ما هو أروع وأجمل من مائدةٍ مليئةٍ بالمَنِّ؟ ولكن اليهود تعسَّروا، رغم أنهم كانوا يتمتَّعون بمثل هذا الطعام. وما هو أشد مرارةً من الجوع وكل المشاق والمتاعب الأُخرى التي تحمّلها الرسول بولس؟

ومع ذلك، تهلَّلَ وفَرِحَ وقال: «الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي» (كولوسي١: ٢٤).

إذًا، ما السبب؟. السبب يكمن في اختلاف طريقة التفكير. فإذا اعتَدتَ على أن تُفَكِّر كما ينبغي، سترى مدى سهولة ممارسة الفضيلة. وماذا إذًا؟ سيقولُ أحدٌ: هل ستصير الفضيلة سهلةً بسبب طريقة تفكير أولئك الذين يُمارسونها؟ ليس هذا فقط، بل أيضًا لأنَّها في ذاتها سهلةٌ بحسب طبيعتها

وحقًّا، لو كانت الفضيلة دائمًا شاقة، واللذة على العكس من ذلك (أي مُريحة)، لكان ذلك مُبرِّرًا لأن يقول المرء بجُرأة: إنَّ اللذة أسهل من الفضيلة، ما دامت بداية الفضيلة صعبة، أمَّا اللذة فحلوة. لكن نهايتها في الواقع عكس ذلك، وهذه النهاية أبديَّة، بمعنى أنَّ نهاية الفضيلة حلوة ومُريحة، أمَّا اللذة الوقتيَّة فنهايتها مُخيفة. أخبرني: أيُّهما أسهل ليُفَضِّله المرء؟ ولماذا لا يُفَضِّل الكثيرون الطريق السهل؟ فالبعض يعزف عنه (يتركه) بسبب عدم الإيمان، والبعض الآخر، وإن كانوا يؤمنون، فإنهم **ينتهجون** طريقة تفكير خاطئة، ويفضِّلون اللذة الوقتيَّة بدلًا من الراحة الأبديَّة.

وهل هذا أمرٌ سهل؟ ليس بالسهل ولا بالمريح، بل هو مؤشِّر على نفسٍ مريضة.

تمامًا مثل المُصابين بارتفاعٍ في درجة الحرارة، إذ يشتهون شرب ماءٍ بارد، لا لأنَّه يُشعرهم بالراحة ويخفف من حرارتهم المرتفعة، مما قد يكون أفضل من بقائهم ملتهبين دائمًا، بل لأنَّهم لا يحتملون ضبط رغبتهم في الارتواء من الماء البارد. هكذا أيضًا هؤلاء، لو أنَّ أحدًا حملهم إلى الجحيم في لحظات التمتُّع باللذة، فإنَّهم لن يُفَضِّلوا هذه اللذة على الإطلاق.

٦- أرأيتَ كيف أنَّ الشرَّ ليس بالأمر الهين ولا السهل؟ لنتأمل ذلك في الظروف ذاتها. أخبرني، ما هو الأجمل والأسهل في المثل السابق؟ ولكن يجب ألَّا نحكم على الأمور انطلاقًا من رغبة الكثيرين، بل ينبغي أن نحكم لا بحسب رأي المرضى، بل بحسب رأي الأصحاء. بمعنى، لو أنك أشرتَ إلى آلافٍ ممن يعانون من ارتفاعٍ في درجة الحرارة، ويطلبون أشياءَ ضارَّة ويفضِّلون الحصول عليها، حتى لو أدَّى بهم ذلك إلى الموت، فلن أقتنع بأنهم سيفضِّلون شيئًا كهذا. إذًا، أيُّهما أفضل وأسهل:

أن يشتهي أحدٌ مالًا كثيرًا، أم أن ينتصر على هذه الشهوة؟ بالنسبة لي، من الواضح أنَّ الأسهل هو الانتصار على هذه الشهوة. لذلك، حتى إن لم تؤمن بهذا، فسنظلّ نتحدَّث عن هذه الأمور ذاتها. فلو أنَّ شخصًا يشتهي الكثير، وشخصًا آخر لا يشتهي شيئًا، فمن منهما الأسمى والأكثر وقارًا؟

لنترك هذا، لأنَّ الجميع يعترفون بأنَّ الثاني (أي الذي لا يشتهي شيئًا) هو الأكثر وقارًا، ونحن لا نتناقش في هذا الأمر، بل نبحث في مسألة: مَن الذي يعيش بطريقة أسهل وأكثر جمالًا؟ **فَإِنَّ البَخِيلَ لا يَفْرَحُ حَتَّى بِمَا يَمْتَلِكُهُ، لِأَنَّ مَا يُحِبُّهُ لا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَهُ**، إذ يقبل أن يُجهِدَ نفسه ويتعبها بكلِّ رضى وارتياح، ويقبل أن يُهان وأن يتحمل المتاعب والآلام الجسديَّة، على أنْ يُلقي ذهبه وماله لإنقاذ نفسه.

أمَّا الذي يحتقر المال، فإنَّه سيربح الكثير، أي أنَّه سيفرح بما لديه ببساطة، بلا خوف، وسيعتبر نفسه أسمى وأرفع من أولئك المستعبدين للمال.

إذًا، **ما هو الأجمل:** أن يفرح أحدٌ بما لديه دون خوف، أم أن يعيش تحت نير الغِنَى ولا يجرؤ على أنْ يمسَّ شيئًا من ممتلكاته؟ أعتقد أنَّ الأمر يُشبه زوجين، فبينما هما في اشتياقٍ لزوجتيهما، إلَّا أنَّهما لا يتمتعان بالحريَّة نفسها تجاههما. فأحدهما مسموح له أن يلامس زوجته ويقترب منها، أي تكون له علاقة طبيعية بها، أمَّا الآخر فيُمنَع من الاقتراب من زوجته.

سأتكلَّم عن أمورٍ أخرى، لأوضِّح أنَّ هناك مَن يفرح كثيرًا، بينما يوجد أيضًا مَن يتضايق ويحزن. فالبخيل، على أيَّةِ حال، سيتوقَّف عن اشتهاء الأموال، ليس فقط لأنَّه لا يستطيع أن يأخذ أموال الجميع، بل لأنَّه، رغم كلِّ ما يملك، يعتقد أنَّه لا يملك شيئًا. أمَّا الذي يحتقر المال، فسيعتبره أمرًا لا لزوم له، ولن يُعَذِّب نفسه برغباتٍ لا حدود لها. لأنَّه لا شيء يُعذِّب الإنسان بشدَّةٍ قدر شهوةٍ تبقى بغير إشباع، وتُظهر مدى انحراف الفكر. انتبه إلى الآتي: إنَّ مَن تسيطر عليه شهوة محبَّة المال، حتى إذا كسب أكثر مما يتمنى، فإنه، نظرًا لبخله، يشعر وكأنَّه لا يمتلك شيئًا. فهل يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر تعقيدًا من هذا المرض؟ وليس هذا فقط ما يبعث على الخوف، بل بينما هو يمتلك أموالًا، يعتقد أنَّه لا يمتلكها، وينوح وكأنَّه لا يملك شيئًا. وإن أخذ ثروات الجميع، يحزن أكثر، وإن اكتسبَ مائة موهبة، يتضايق لأنَّه لم يكتسب ألفًا، وإن أخذ ألفًا، يُعاني لأنَّه لم يحصل على مواهب لا حَدَّ لها، وإن أخذ آلاف المواهب، يحزن كثيرًا لأنَّه لم يحصل على عشرات الأضعاف منها. وكلما زادت ثروته، ازداد شعوره بالفقر، لأنَّه كلما أخذ أكثر، اشتَهى أكثر.

إذًا، عندما يأخذ مائة موهبة، فهو لا يعتبر نفسه فقيرًا بدرجة كبيرة، لأنَّه يشتهي ألفًا. ولكن عندما يأخذ ألفًا، عندئذٍ يصير أشد فقرًا، لأنَّه يقول إنَّه لا يكتفي بالآلاف، كما كان الحال من قبل، بل إنَّه يحتاج إلى مواهب لا حصر لها. فإن كنتَ تشتهي شيئًا ولا تحققه، ثم تقول عنه إنَّه شهوة، فأنا أعتقد أنَّكَ تجهل تمامًا طبيعة الشهوة أو اللذة. أي أنَّ هذه الحالة ليست لذَّة، بل **جحيم**. فلنفحص هذا الأمر أيضًا بعد ذكر مثالٍ آخر. عندما نعطش، ألا نفرح عندما نشرب، لأنَّ عطشنا قد زال؟ إنَّ شُرب الماء هنا لا يُعدُّ لذَّة أو متعة، لأنَّ الارتواء يخلِّصنا من العطش، إذ إنَّ الرغبة في الشرب احتياجٌ طبيعي. أعتقد أنَّ هذا واضحٌ جدًّا. فإنْ كُنَّا ننوي أن نحيا دومًا خاضعين لمثلِ هذه الشهوة، فسنُعاقَب نحن أيضًا، مثل الغني في مثل الغني ولعازر. لأنَّ **الجحيم** بالنسبة له تمثَّل في أنَّه اشتهى بشدَّةٍ قطرة ماء، ولم يجد من يقدِّمها له.

أعتقد أنَّ هذا تحديدًا ما يعاني منه البخلاء، فهم يشبهون كثيرًا ذاك الذي أراد أن يستمتع بقطرة ماء، ومع ذلك لم ينلها. بل إنَّ نفوس هؤلاء تلتهب ببخلها كما تلتهب نفس ذلك الغني، بل وربما أشدّ. وقد قيل، وهذا حقٌّ، إنَّ البخلاء مثل أولئك الذين يعانون من مرض الاستسقاء، فعلى الرغم من وجود ماءٍ كثير في أجسادهم، إلَّا أنَّهم يعانون من العطش، إذ يشعرون بارتفاعٍ شديد في درجة حرارة أجسادهم. وهكذا، فإنَّ البخلاء، عندما يكون لديهم أموالٌ كثيرة، يشتهون امتلاك المزيد. والسبب في ذلك أنَّ الماء في أجساد هؤلاء لا يكون في المواضع المناسبة، وكذلك فإنَّ شهواتهم لا تكون لائقةً بالأفكار السليمة.

إذًا، لنتجنَّب هذا المرض الغريب عن الطبيعة، ولنتجنَّب جذور الشرور، ولنتجنَّب **الجحيم** في هذه الحياة الحاضرة، لأنَّ شهوة المال هي **جحيم**. إذًا، افحص نفس الاثنين، أي من يحتقر المال ومن لا يحتقره، وسترى أنَّ من **لا** يحتقر المال **يشبه المهووسين**، إذ لا يرغب في أن يرى أو يسمع أي شيء. أمَّا من يحتقر المال، فيشبه الميناء الهادئ المتحرِّر من الأمواج، وهو صديق للجميع، على عكس من **لا** يحتقر المال، فهو عدو للجميع. بمعنى، لو أنَّ أحدًا أخذ من الذي يحتقر المال شيئًا، فلا تجده يحزن لذلك، وكذلك، لو أعطاه أحدٌ شيئًا، لا يتباهى، لأنَّه يتمتَّع بحريَّة تمنحه شجاعةً تامَّة. وتجد البخيل مُجبَرًا على أن يُنافق الجميع ويتملَّقهم، بينما من يحتقر المال لا يتملَّق أحدًا. إذًا، مادام البخيل فقيرًا وجبانًا وموضع تهكُّم، ومنافقًا، وممتلئًا بالخوف، ومعرَّضًا لعقابٍ وعذابٍ شديد، فإنَّ الذي يحتقر المال هو عكس ذلك. أليس من الواضح جدًّا أنَّ الفضيلة هي الأمر الأكثر جمالًا؟ إن لم أكن قد قلتُ الكثير بالفعل من قبل! إلَّا أنَّنا قد فحصنا الشهوات الأخرى، والتي تبرهن على أنَّه لا توجد أي شهوة تحمل معها لذَّة حقيقيَّة.

إذًا، ونحن ندرك هذه الأمور، فلنفضِّل ممارسة الفضيلة، حتى ننال الخيرات الأبديَّة، بالنعمة ومحبة البشر، التي **لربنا يسوع المسيح**، الذي يليق به مع **الآب والرُّوح القُدُس**، المجد والقوَّة والكرامة، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

(يتبع في العدد القادم)

توزّع هذه المجلة مجانًا

جمعية نور المسيح

كفركنا – الشارع الرئيسي – ص . ب . ٦١٩

e-mail: light_christ@yahoo.com

http://lightchrist.org/bulletins.html

المحرّر المسؤول:
هشام خشيبون - سكرتير جمعية نور المسيح

لدعم نشاطات الجمعية تُقبل التبرعات مشكورة في بنك العمال فرع الناصرة ، حساب رقم:

IBAN: IL480127260000000111122